أرواحٌ مشروخة

رواية

سهير عبد الله رخامية

obeikandi.com

obeikandl.com

obeikandl.com

في ليلة باردة، والسماء ملبدة بالغيوم كعادتها من كل شتاء، حجبة الرؤية عن بعض المارة في ذلك الشارع الوحيد لذلك الحي، لولا شعاع القمر المتواري خلفها، وشعاعه أخذ يتضاءل شيئًا فشيئًا، ينتقل متخفيًا وراء غيمة وأخرى، يخبو ذلك الشعاع مختبئًا بين تلك الغيوم الداكنة لليلة ممطرة.

كانت الرياح تلف الأشجار الممتلئة أوراقها بغبار الخريف، والحبلى بماء المطر الكثيف، أخذت تلك الرياح تلعب بسرعتها وهي تبعثرها هنا وهناك، وتلقي ببقاياها الخريفية المتبقية على أرصفة الموانئ البالية. لمراكب صيد مهجورة من ساكنيها، في تلك المدينة الصغيرة، الغافية على خليج ذاك الشاطئ القريب، كانت مريم تقيم مع عائلتها بتلك العمارة القريبة من البحر،

مع عائلتها الصغيرة، تعودت مريم الخروج بين ليلة وأخرى، متسللة كعادتها كي لا يراها أحد من أهل البيت، وسكان العمارة وجيران الحي، تمر الليالي المختلفة والمتقلبة، بطقسها المتغير والمتبدل كنفسيتها المتبدلة.

خرجت مريم ذلك الفجر مبكره على غير عادتها. كانت قد عرفت فيما قبل، أنها تخطت الأبعاد المتاحة والمسموحة لخروجها من المنزل، إلا مع والدتها أو جاراتها الصغيرات. كانت تخطو نحو سنواتها الخمس الأولى، وحدها كانت تخرج متسللة ومتشتت الأفكار، شبه نائمة، لذلك لم ترسم لنفسها أبعاد واضحة لخطورة ما تفعل، ولم تَحسبُ كَم سيكون تأثيره سيئًا عليها وعلى عائلتها، عندما تستيقظ والدتها. ستفتقدها حتمًا، ويفتقدها جميع أهل البيت عند اجتماعهم الصباحي، كالعادة على مائدة الفطور، لكن التوحد الذي تعيشه أخذ يسحبها بصمت وهي نائمة يغريها بأمور كثرة، تسير مع خطواتها المتباطئة، تشعر كأنها تعود من بُعدٍ آخر لمكان غريب، غير معروفه أبعاده الزمنية، ولا المكانية، أحست كأنها تدور بفراغات دوائر لمستنقع مياهه راكدة، هكذا كان شعورها، إن هذا البعد ليس له هويه، ولا انتماء، ولا أية قواعد ثابتة، ولا أصول صحيحة ترتكز عليها، كما يرتكز عليها بقية الناس، كانت تتملكها أنوع غريبة من الهواجس المتراكمة بداخلها، لا تعرف كيف تركها الزمن بين حوافي أيامه، بصمة صغيرة صماء، لا خطوط فيها. تركها بمحطات حياتها المتنوعة، إذا ما قيست بسنوات عمرها القليلة، كرسائل وهمية وصلتها تلك الأحلام الغريبة، جاءت محفزة لتَخرُج إلى الشاطئ المهجور قبل بزوغ الفجر، لم تعرف المعنى المقصود، الذي وصلها وجعلها تجري إلى تلك البقعة المهجورة على الشاطئ تلك الليلة من ذاك الشتاء، ولم تبحث عن السبب، لتكتشف الحقيقية الكاملة

لتصرفاتها، من وراء ذلك الإيعاز الذي وصلها، كانت متأكدة أن تلك الرسائل تصلها على شكل هواجس وكوابيس، تأتيها بين فترة وأخرى، عندما يملأها الرعب ويهز كيانها الصغير، يتركها ترتعش وتنتفض كعصفور صغير الزغب بللته أمطار الشتاء القارصة وتركته دون مأوى يلجئ إليه، وإحساسها الدفء يهرب منها ويتركها وحيدة. إحساس مقيت وبشع أصبح يرافقها، أحسته بين ضياعها، وأخذ يعشعش بتلافيف عقلها الصغير، ولم يتركها طيلة سنوات ثلاثة مضت، توقفت وهي تتأمل نفسها متسائلة تنظر بمرآتها الصغيرة التي تسكن عقلها الباطن، تبحث فيها عن ملامح وجهها التي فقدتها.؟

كيف استطاع أن يتَملكها هذا الكائن، ويتمكن منها هذا الشعور، المفرط بالغرابة، وكيف استطاعت برغم ذلك، أن تتجاوز تلك الخطوط المرسومة فوق ملامحها بخوف وهي تعبر من ضفة لأخرى، هكذا كانت تمر بها بعض الليالي. تابعت الخطوات بين الخطوط المتشابكة وهي تتراءى أمامها مهتزة، مع تلك الأضواء الغائمة لأعمدة النور تغلفها سيول المطر ليضعف نورها تارة، وأخرى تشع تلك بالأضواء ويشتد نورها لتظهر لها أبعاد الشارع الذي تسير به وهي تعبره متجهة نحو الشاطئ المذكور، أحد ما يرسل لها إيحاءاته لتتبعه، وها هي شريدة وشاردة الذهن كليًا من جديد، وبعيدة عن كل من حولها، تسير وهي نائمة لا زالت ..!!عندما وصلت الشاطئ وللنقطة الأخيرة منه، توقفت ... وتوقف تفكيرها المرهق بالأسئلة، مع توقف صوت خطواتها المتثاقلة تعبًا، على رمال الشاطئ التي عَلقت على رجليها الحافية، كانت تسمع وقع جسدها المحبط والثقيل على الرمال، تراها من بين ضباب كثيف وهي تتناثر على وجهها مع رزاز المطر، مدت يديها لتمسك وتلملم أطراف ثوبها المتطاير مع الرياح العاصفة المملوءة بالمطر، ترفع يدها مرة ثانية لتبعد خصلات شعرها المشعث من الماء، رغم سلاسته عن وجهها، حين بدأ يلف عنقها الأبيض، وجهها الطفولي البريء، ويحجب الرؤية عن عينيها كليًا، وأفكارها لازالت تسرح بعيدًا عنها، مع كل موجة تأتي إليها تُنذرها بالابتعاد عن الشاطئ، كأنها تحذرها. لو بقيت أكثر من تلك المدة ستأخذها معها لجوف البحر وترمي بها للحيتان تأكلها، أخذت ترتعد مجددًا، من البرد ومن أفكارها المخيفة، ومن كل شيء حولها، تعرف أن كل ما يحدثُ معها كأنه لعنة من السماء لا تفسير لها، تلاحقها بطريقة غير عادية أبدًا .فجأة تركت كل شيء أخذت تلتفت يمينًا ويسارًا، كأن لسعات الرياح الباردة أيقظتها من غفوة نوم طويلة مع كوابيس أرهقتها. أخذت تهرول عائدة أدراجها من حيثُ أتت، كانت

خائفة ومذعورة، ازداد المطر هطول وكثافته ثقُلت، وهو ينهمر بغزارة شديدة، ما لبثت أن غرقت وثيابها به، وغمرتها مياهه من رأسها حتى أغمص قدميها الحافيتين وهما تتقلصان وترتعشان من البرد، تنقلهما على التراب المُوَحلة هاربة تركض متجهة نحو المنزل، خلال دقائق قليلة وصلت، فتحت باب البيت، كانت قد تركته مواربًا، ودخلت تتسلل إلى غرفتها، خلعت ملابسها المبللة، وارتدت شيء من الثياب المتروكة على كرسي هزاز، اعتادت أن تراه أمامُها بجانب السرير، دست نفسها بالفراش وهي ترتعد وترتعش من الخوف والبرد، أخذها النوم بمجرد أن شعرت بالدفء يلف جسدها الصغيروينقلها إلى عالم آخر من الأمان.لا تعرف كم من الوقت مَّرَعليها وهي نائمة ، عندما استيقظت على صوت خطوات تقترب منها، نظرت مستغربة أنها مبللة بالكامل، ولم تتذكر ما حدث معها فجر الصباح، بعد أن أيقظتها خطوات والدتها، وحرارة دفئها عندما اقتربت منها، راعها ما رأته من حالة ابنتها، صرخت بدون وعي منها ماذا بكِ يا مريم .؟

بالله عليكِ ما هذا.؟

شعرك وثيابك مبلولة بالماء وأنتِ ترتعدين من البرد يا ابنتي، لا يمكن أن تكوني قد تبولتي ليلاً وأغرقتِ نفسك بهذه الكمية الكبيرة من البول، من مدة طويلة لم تفعلي ذلك، اقتربت أكثرلتشم الرائحة وتتأكد من جنس تلك المادة، أهي بول كما توقعت.؟

ولكنها لم تشم سوى رائحة الماء، قالت متابعة، إنه ليس بول يا مريم ... ماذا هو إذًا بحق السماء، وبحق الله عليكِ يا ابنتي. من أين أتتكِ كل هذه الكمية من الماء لتفعل بكِ ذلك..؟؟

ومريم صامتة لا ترد، وتنظر إلى أمها نظرات غريبة، وتعود لتنقل نظراتها إلى ثيابها، وتلمس بيدها. شعرها. ورأسها. ووجهها مستغربة هي الأخرى الوضع الذي هي به، صامتة تتابع أمها ولا تنبث ببنه شفة، عند ذلك حملتها أمها وذهبت بها إلى الحمام الساخن، ومن ثُمَ عادت بها إلى غرفتها الخاصة بهدوء كي لا توقظ زوجها، وضعتها في سريرها وغيرت لها ملابسها، وعادت مرة ثانية لغرفة مريم، تُغيرلها فرش سريرها المبلل .مضى النهارولم تعرف أم مريم سبب البلل الذي كانت عليه ابنتها، وما حدث مع مريم تلك الليلة، لكنها توقعت أن تكون ابنتها سكبت على نفسها كأس الماء الذي كان بجانب السرير، وهي تحاول أن تشرب بعض منه ليلاً ، وأقنعت نفسها بذلك ربما من خلال تلك الحادثة ومع مرور الأيام اكتشفت مريم وتأكدت بَعد بضعت سنوات تتالت عليها، وبعد مرارة وعذاب طويل، أن أمور غير عادية تحدث معها وتَتَكرر،

مما أجبرها أن تحَمل حقيبة طفولتها المليئة بفراغات وانعكاسات وهمية لأمور غريبة وأسرار غامضة ومظلمة، ودوائر رمادية تلفها خيوط عنكبوتية تائهة، بفضاء واسع تلعب بها ، وتفصل بينها وبين واقعها مسافات السنين الأولى لطفولتها، وبدأت تشعر أن شيئًا بدء يُشرخ ما تبقي من ذاتها، ويأكل بنهم كل صلابتها، ويتركها هشة وضعيفة، وسريعة الانقسام، مما ساعد بالتالي على انقسامها نصفين، وانفصلت متباعدة وسكن الفراغ بين جسدها وروحها..!! لم تفهم، ولم تعي مريم تمامًا ما حدث لها وما يحدث لاحقًا، كأنها داست بخطواتها اللاإرادية على رمالٍ صحراء متحركة، ومن بين سراب تلك الصحراء التي تلفها، أخذت تركض لاهثة، وعلى أبعاد متعددة ومختلفة، هامت خلف هذا السراب لوهمٍ لا جدوى منه، غارت قدماها مرات أخرى بعمق الوهم الذي يعيش بها، وتابعت المسير بتلك الخطوات المتعثرة ، مترنحة بين الماضي والحاضر، تبحث عن بطاقة هوية لطفولة تائهة منها كل الأحلام، أخذت تجمع وتلتقط من بين سنين الأيام، بعض المواقف التي مرت بها هنا وهناك، وبدأت تستعيد أدق تفاصيلها مع تلك الأحداث التي تتقاطع معها..!!

من ضعفها وعدم ثقتها بنفسها، تابعت المسير مترنحة، داخل هذه الضوضاء. من ضعفها أحست أنها غيرواثقة من النهاية التي تنتظرها، فقررت أن تكون أقوى وتضع حداً لكل ما يحدث لها، بنقطة فصلٍ واحدة وحاسمة، مع مشوار حياتها القصير، الذي لم ينضج بعد، أرهقها تعبًا ذلك الإحساس، وأنهكَ قواها المتبقية ، مقطوعة الأنفاس تركض وراء المجهول ، تقف مستدركة تلهث، تلتقط أنفاسها المتقطعة حينًا، وتتابع حينًا وهي تقول : آه من الأيام كم تحمل بحقيبتها ملفات غامضة لا تفسير لها.

غامضة حين تقتحم علينا خلوتنا بصمت، وبدون مؤشرات، تدخل بأنفاسها المتعبة وتتعبنا معها، تحرك كل ما هو ساكن بداخلنا، تتركنا نتأهب للوقوف وتقذف بنا بين المتاهات، راكدين ننبش بين السراب، نبحث وراء أرواح مشروخة عبثت بملامح وجودنا، عن روح خرجت من أجسادنا وتاهت عنَّا، وأصبحت بين سراب الأوهام تعيش غريبة، تعرقل خطواتنا، وتحبطنا عن متابعة المسار، نضيع ونحن نبحث عن طريقة مثلى كي نلتقطها ونعود بها لنضعها بمكانها الصحيح. هكذا تتركنا تائهين نبحث بين الملفات، عن ذاكرة شاردة منها الروح، ومفصول عنها الجسد، ومتقلصة فيها نبضات الحياة وهي تهيم باحثة بفضاء اللانهائيات. بين كل هذ التيه الغريب، كانت مريم تعيش وتتوقف على كثير من محطات الحياة محتارة ....سؤال

واحد كان يقلقها، ويُثيرُ حيرتها وفضولها ... من أين تبدأ .؟ كيف بوسعها أن تكتشف غوامض تلك الذات التي تسكنها، وأصبحت تائهة عنها وخارجة عن جسدها بتمرد وعناد، تقف أمامها تتحداها وتعاندها.؟؟

كيف بوسعها أن تراها بوضوح، وتفك طلاسم غموضها، وتمسك بخيوطها المتطايرة أشلاء، بين الفضاء الواسع، لسماءٍ رمادية، غائمة ألوانها، وباهته مساحاتها من كل شيء، إلاَّ من تلك الدوائر العنكبوتية المرسومة على محيط الرؤية لشبكة عينيها، وخيال تتراقص أشباحه، تمزج اللون بالشكل وتموه به ضائعة، تغلف روحها المتعبة، وتفصلها عن جسدها الميته منه حرارة الحياة، منكسرة فيه كل الاتصالات لشبكات جسدها التي أصبحت منفصلة عن مهماتها، بعد أن فقدت حواسها الخمس كل وظائفها هي الأخرى، بفقدها لكل الاتصالات للشبكة العنكبوتية الخاصة بجسدها المفصولة عنه الروح، كانت تسكن بين الأجزاء التي ترتبط وتتشابك ببعض، بلحظة بعثرة ما بداخله ، أصبحت بعيدة عن كل شيء يحيط بها، وفقدت بوصلة ذاتها الاتجاه الصحيح .هي لا تعرف بأي مكان كانت تسكن، تلك الغيوم، حين حجبت عنها كل ما يسكن بداخلها، ولا تعرف الزمان الذي تنتمي إليه، ولا المكان الذي تعيش فيه ، تقف على أرصفة بعيدة المدى للرؤية عنها. تحاول أن تقوم بعملية مسح سريعة ، وتعاود المحاولة مرات وتُكررها، تحبط مساعيها ولا تتمكن من الوصول لشيء، تتمهل قليلاً... تبحث بين فراغات عقلها الباطن ، يضيع التفكير عنها وتفقد بوصلة الإحساس من جديد لأنها معطلة، لا تعرف أي شيء واضح عن شخصية مريم ... مستغربة تتساءل هل هي مريم المعنية بالاسم الذي تناديها به أمها، لا تعرف حقيقة ما تبحث عنه، تتساءل هل اسمها هو مريم فعلاً.؟ هكذا ينادى عليها، تبحث عن اسم عائلتها وكيانها ووجودها وثوابت شخصيتها، من تكون.؟؟لذلك كانت مصَّرة على المضي بذات المسار، تتابع وتمشي وراء الضجيج المُفتعل اندماجه بها، وملتصق بكل تفاصيلها الغامضة كأنه توأمها. هدأت ساكنة، مضجعة على ذاتها متكورة، تطوي فضولها بخوف، تسمع همسات تأتي من البعيد لأصوات حاملة معها تلك الأرواح المتداخلة بكل أجزاءها المنتشرة على كل الأبعاد، وهي تسكن تجاويفها الفارغة من كل شيء، تسكنها هسهست روحٍ غير معروفة وأسباب كانت تجهلها في البداية، توحدت مع ذاتها مجبرة مرات، ومضتْ بصمتها المعتاد، برغم الضجيج الذي عاشته وهي تخطو السنوات الأولى مع جدتها، تذكرها جيدًا، تذكر أنها عاشت معها فترة طويلة ، ولكن تغير ما حصل لها، غير تلك المُوروثات، وبالتالي غيرت معها

الظروف الكثيرة التي مرت عليها تسلسل ايامها، وفاجأتها بنمط حياة مختلف، جعلها لسبب ما، تبحث عن حَلٍ لخروجها من متاهة التوحد ، فدفعتها أسباب غريبة لأن تبتعد، منسلخة عن كل من هم حولها، لتسترد ذاتها المريضة، ولا تعرف كيف أصبحت مريضة النفس فاقدة لشيء ما ينقصها، فقررت أن تنقذ نفسها قبل فوات الأوان، وتعيد لذاتها تلك الروح التي هجرتها، وتعود بها لتسكن مكانها الطبيعي داخل جسدها الفارغ، تعيدها إلى مكانها الطبيعي والصحيح، تسكنه بأمان كما كانت، وتستقر معه، وهي ترسم خطه البياني، لحياتها من جديد، محاولة الخلاص بتفكيك كل العقد، واحدة تلو الأخرى، لتخرج من هذا التقمص الذي يتحدثون عنه، عند رؤيتهم لها .

وكثيرًا ما كانت تنفرد بروحها الهاربة منها، والهائمة، تبحث باستمرار عن شيء تجهله، تخونها الخطوات والمواقف المتكررة لذات الموضوع، ولا تزال في محاولة مستمرة لرفض التوحد والانعتاق منه، لا تعرف إن كانت أسيرة لتلك الأرواح المهاجرة التي تبحث عن جسد لتسكنه، حين أخذت روحها منها وسافرت بها لعالم آخر، أم أنها لازالت طليقة وأسيرة بنفس الوقت بجسد آخر غير جسدها، تائهة أصبحت بين التوحد بعالمها الخاص وبين اندماجها مع الآخرين، أهلها، أقاربها، وأصدقاء المدرسة، وجيران الحي، لا تعرف أين هي منهم، تتعثر مرات، تصطدم بجدران صلبة، تمنعها من تخطي تلك المنافذ، المحجوبة عنها، لتخرج من دائرة الأروح التي تحيط بها، وهي تسكن جسدها المشروخة منه الروح مبتعدة عنها عندما هجرته روحها تاركة فراغ كبير، حين تركتها الروح لأسباب غير مفهومة. تلك الأرواح الهائمة حولها كانت تعبث بها باستمرار، أصبحت الآن تثقل كاهلها تفرض نفسها، تشاركها حياتها، وتوحدها معًا، لذلك لم تكن واثقة من نفسها أبدًا، ومن إمكانية وصولها المحدد، لأي منعطف تريده، ليكون هو البوصلة التي تنير لها الطريق الصحيح، لتقترب من نقطة فصل حاسمة، وتعرف عند ذلك الحقيقة الكاملة التي كانت تبحثُ عنها.!!والأسئلة الكثيرة لا زالت هي ذاتُها تتكرر باستمرار... اختارت أخيرًا وسمحت أن يكون الخط الذي يربطها بين التوحد والروح، خط تعرف إشارته وذبذبات توجهاته منها، ليس خارج عن نطاق تحكمها به، حين تركت له الحرية ليحدد الاتجاه المناسب بدون قرار منها، لأنها لا تستطيع أخذ القرار، وهي مدمنة على الانخراط بضجيج حياة وهمية، تحاول الانقسام والانسلاخ، بشتى الطرق ولا تستطيع.؟ تعبت في البحث عن مخرج محدد، لتَخرُج من هذه الدوائر العشوائية.!!ساقتها الأقدار ذات مرة، بمشيئة الصدفة

البحتة، أن تمشي بطريق، وتَسحب معها خيوط حياتها المتشابكة، بأساليب مكرٍ لا تعرفها ولكنها ستخوضها مصرة، ومضطرة كانت لتنقذ نفسها، بالاستسلام مرة، والتمرد مرة أخرى، تتحايل على التمرد بداخلها، وتلتف حول نفسها ضائعة، وتجد أنها لازالت تراوح بنفس المكان، لا المكر ولا الدهاء الذي خططت له أوصلوها لأي نتيجة مهما كانت، بل على العكس تمامًا، ازداد ضياعها لأنها طفلة بريئة لازالت تحبو مع أفكارها، لا تعرف مكر الكبار ودهائهم .اقتنعت أن الوقت الذي يمر بها لم يعد يهمها، وأن كل ما يهمها هو الوصول لغايتها ، وشيء واحد أصبحت متأكدة منه وتعرفه تمامًا، وتضعه أمام ناظريها، إنها لن تَمُل المحاولة، مرة بعد الأخرى، لذلك أخذت قراراتها تستعين بالحاضر قبل الماضي.برغم أن السؤال نفسه لا زال يتكرر، يقلقها ويزيد حيرتها، من هي ... ومن أين تبدأ.؟ أي محطة ستختار لتكون نقطة البداية، وتنطلق منها ، وبأي عربة من عربات قطارها المتباطئة سرعته في الوصول ستكون وستصعد إليها، لتعود الروح الهاربة منها، وتسكنها من جديد.؟ لتكون إذًا في عربة البداية، مع نقطة التحرك الوسطى المتجهة نحو الانطلاق والحسم المؤكد. وتبدأ قصتها إذًا، ليس لها خيار آخر .... مجبرة ومشتتة ....من ضعفها، وترددها المستمر، تتوقف في منتصف الطريق ... متسائلة .؟ تلك هي علتها تكرر نفس الاسئلة ، هكذا كانت تقول مريم وهي تخاطب نفسها: أعرف أنني لم أعد طفلة، ضعيفة وهشة ،وليس بوسعي أن أكتشف تلك الأسرار وحدي، لا يوجد لديَّ أحد لأستطيع أن أستند إليه أو أعتمد عليه، ليحميني من الخوف الذي يتملكني، ومن مفاجآت قد تظهر لي وتحبطني، كيف سيكون وقعها وردتَ فعلها عليَّ بدون مساعدة أحد من أهلي، أو طبيبي الخاص .؟ لا جواب تسمعه ، سوى الصدى البعيد، لصوتٍ ممزقة منه رنات الأمل، كل ذلك كان لأنها تتحرك بمفردها. كانت مريم تتابع مرارة توحدها، برغم أنها لا تعرف معنى التوحد الذي تعيشه، ولا تعرف بأي مكان محدد سكنتها تلك الأسرار وغلفت حياتها، وأحاطتها بالغموض والأسرار منذ صغرها .

لا تعرف المكان الذي اختارته لتختبئ فيه داخل نفسها المظلمة لتنبش فيه وتُخرج الحقائق. هي لا تعرف شيئًا واضحًا عن مريم، لأنها تُشكل جسدها فقط، أما روحها الهائمة، سُرقت منها وغادرت جسدها الصغير ولم يعد لها روح ، وأكثر ما يتعبها ويقلقها، أنها لا تعرف لأي عائلة تنتمي ... اسمها الثلاثي .. أو الثنائي ، أو الأُحادي لا تعرفه. لا تعرف كيف تتشكل الأسماء لتعطي صفة الشخص الخصوصية لانتمائه، ضائعة وشريدة ...ضائعة عن نفسها، وشريدة عن عائلتها، وسكنها وناسها، ليس لها

انتماء ، هذا كل ما تعرفه..!!كيف بوسعها إذًا الوصول إلى الحقيقة الكاملة، التي تبحث عنها باستمرار.؟؟كيف بمقدوره ذلك الشبح الغامض أن يُوثق شخصيتها، ويؤكد لها نسبها وملحقات أمورها، وهو يرافقها متابعًا خطواتها، تحُس وتشعر به ولا تراه، تلمسه كطيف ولا تمسك به كمادة وجسد، لا يتركها أبدًا، يعبث بكل مكنونات حياتها، ويقلبها رأسًا على عقب، بقدرة عجيبة تندهش لها ولكل سلوكها معه ، مستسلمة له وهو يسحبها وراءهُ مغمضة القلب والعينين. عادت من بين ضياعها، متأكدة أنها متوحدة وشريدة، هذا لا شك فيه ، ووحيدة أيضًا، كانت تعتقد أنها عاشت نصف حياتها منذ طفولتها على الأغلب هكذا، تفتعل حياتها وتنسجها مع الوهم من خيالها، لتعيش بها مع تلك الأرواح التي يسيطر عليها خيال ذلك الشبح المرافق لها باستمرار ويأبى أن يتركها، برغم ضجيج الحياة حولها. ولكي تتعرف على مسارها الصحيح وتشق طريق واضح تسير عليه ، أصرت أن لا تُسقط شيء من شريط الذاكرة الوحيد لديها، قد يحمل بجعبته كل ما تبحث عنه، ويَدُلها على الطريق الصحيح، وهي تنازع خواطرها المخيفة. قررت وبجرأة هذه المرة، معتقدة أنها تَخطت خوفها ولو بالوهم، ووقفت عند منعطف واحد لعتبة محطاتها الكثيرة التنوع، واختارت أحداها أخيرًا، تذكرت جيدًا تلك الخطوط التي كانت مرسومة على جبهتها ولا أحد يراها سواها، عندما تشكلت أمامها فجأة ذات يوم، لذلك أصرتْ هذه المرة، بدون تردد، وتابعت تسلسل الأحداث التي تناوب مرورها على ذاكرتها ترسم مسار واحدًا لها، نقلت إليها حياتها ووضعتها أمام عينيها ورؤيتها، وبين يديها، وبزاوية معينة كي تراها بشكلها الصحيح ،للرؤية الواضحة للبصيرة وليس البصر، لأن البصيرة أكثر كشفًا لنور الحقيقية من حاسة البصر.!!أهي مريضة نفسيًا، أم أن جنيٍ تلبس بها، أم أن أرواح شريرة سكنتها..؟؟؟أم أن كل هذا مجتمعٌ ببعضه كان بها.؟؟هذا ما تريد التحقق منه ومعرفته وهي تروي تفاصيل ما حدث معها، من خلال حكايتها .وحين اقتربت من خزانة ذاكراتها، استوقفتها ملامح كثيرة، لوجوه مختلفة، تتراقص أمامها، أشباح تعبث بها وتستفزها وهي تشير لها بأشكال عشوائية لرسوم كاريكاتورية غير مفهومة، تُرسم رسومٌ لأشكال غير واضحة وشخصيات وهمية، لخيال يعبثُ بها ويعمل بسرعة، يتَحرّك بنشاط غريب. كانت تعيش تلك الأوهام والخيالات بمخيلتها وعالمها الخاصة .توالت الأحداث تباعًا، ومسرعة كانت تحاول التقاطها، للإمساك بها، وبتلك السلسلة التي أتعبها اللحاق بإحداها فيما مضى، وتمكنت منها أخيرًا الآن. أخذت تتابع وهي سعيدة لِكل ما وصلت إليه واكتشفته بعد عناء وجهد

كبيرين ، وبعد أن كان وصولها إليهم حلمٌ من الأحلام المستعصي تحقيقه.

عاد ذلك الشيء الغريب المختبئ بين جدران الواقع أمامها، يعبث ويصرخ بداخلها بضجيجه المفتعل والدائم الحركة .... إنه هو... هو وليس غيره، الشبح الذي يرافقها ويتبعها لا زال يصرخ بقوة، فارض نفسه عليها وعلى حياتها، حتى أنها عودت نفسها عليه مرغمة، وعرفت إنه هو ذاته الوحش المرعب دائمًا يفاجئها بحضوره المرعب، ويُذكرها بوجوده، وأنه لازال يُسْكن فيها بصمته ولن يتركها ترتاح . أصبحت شبه متأكدة أنه السبب الوحيد لكل مَا يحدث لها من تدمير خارجي لحياتها، وأخذت تبكي هذه المرة ليس لها سوى الدموع، أخذت الدموع تغطي مساحة الرؤية الكاملة لديها، وبداخلها صرخة مكتومة تقول: هو وحده المسبب الرئيسي والمسؤول الأول عن كل ما يحصل معي. ووصلت إليه حالها، من ضياعها النفسي، إلى تشردها الذهني، وخيالها الوهمي .يمر كل ذلك أمامها تستعرضه مع ذاكرتها مستغربة لا زالت كيف كانت تابعه له، وتصدق ما يأتي به من أخبار عن انتماءها المفترض مع مفارقات حياتها.؟؟ تَذكُر من مدة وجيزة كيف كانت تترقب حركاته، وسكناته، وابتعاده، واقترابه منها كل هذه المسافة، مستسلمة وهي تمضي معه، وتُفاجئها الأيام بصوت وهي تصرخ مستغربة ابتعدي ... ابتعدي عنه... تسألها كيف بدأتِ بترويض نفسكِ حتى اعتدتِ على وجوده بحياتكِ، وقبلتي التصاقه بكِ .؟ .. كيف تقبلتِ مرافقته لكِ كل هذه المدة دون وعي .؟

كيف تعودتِ على الخنوع له لتعيشي تلك الحياة المزدوجة معه.؟؟

ولا يوجد لديها أي جواب مقنع لترد على تلك الأصوات التي تنبح بداخلها معترضة، والغريب أنها هي الأخرى تبحث عن السبب متسائلة كيف .؟

من أول البداية ... كُتبتْ لها نهاية الرحلة ... لروابط مفرطة حلقاتها.

لم يعد لديها خيار آخر، كل الأبواب التي أمامها مغلقة ، لتقترب إذًا من الحقائق تبحث عنها، كما تعودت ولوحدها وتصم أُذنيها عن سماع أي صوت آخر، لقد حان الوقت لتصطدم بالواقع وتستيقظ من الوهم الذي تعيش فيه، بتَروٍ وهدوء كبيرين يجب عليها أن تفعل ذلك، ها قد أصبح الماضي يعنيها تمامًا كالحاضر وأكثر، وهو يسكن مكان واحد من عقلها الباطن، تعيش به الآن، ذاكرة طفولة مؤقتة كان لطفولتها هي. وليس لأحدٍ آخر، تعرف تمامًا أنها ذاكرة خاصة بطفولتها المليئة بالأسرار الغامضة، أحداث مرعبة، وقصص غريبة، مرت وعاشت معها دون أن تأخذ إذن من أحد. إنها مريم ويكفي ليصمت الجميع. أخذت خطواتها تسير بها

نحو المجهول لطرقٍ مبهمة ، وهي تقطع مراحل مكثفة، بمشقة وعذاب مريرين، استطاعت أخيرًا، أن تستعيد وتجمع كل ما سكن لديها من صور ورموز ، أخرجتهم من الهارد ديسك الخاص بها، والمحدودة مساحة ملفاته بذاكرتها الميتة، كانت بالنسبة لها ، وبدأت تنعشها من جديد، لتستعيدها وتستحضر منها الكثير تساعد نفسها لعودة الروح إليها من جديد، رغم قلت مساحته، وصغر حجم تلك العلبة الصغير التي تقبع بزوايا ذاكرتها المسماة هار ديسك، بدأت تأخذ ما تحتاجه اليوم لتتركه غدًا، تلك الملفات أصبحت تقيم معها في غرف متعددة، تتشبث داخل نفسها الضائعة، المريضة والشريدة منها أكثر الأحيان، أخذت تبعثر كل شيء فيها وتفردها أمامها، وهي تبحث عن طرف الخيط ، لتمسك به ويقودها إلى الحقيقة التي تبحث عنها، وعندما أحستْ أنها أحكمت الإمساك بتلك الخيوط تشبثت بها ، برغم أن خواطر عديدة لصور مخيفة أخذت تظهر أمامها ، تتنازع مع ملفات ازداد عددها، ولكنها تمكنت من السيطرة عليها واستطاعت التحكم بها وتجاوزتها بجرأة غريبة، هي نفسها استغربت من ثباتها وقوة إصرارها في الوصول لما تريد هذه المرة، وما استغربته أكثر، كيف قطعت كل هذا الخوف وتجاوزته بهذه البساطة، وكيف بلحظة قررت أن تقف أمام المنعطف لأكثر إثارة بمحطاتها، هي تحتاج لواحدة منها فقط، تلك الإثارة المحفزة، لتختار منها الحافز الأهم، يعطيها الدفع القوي لتستمر، لا اكثر ولا أقل، هذا كل ما كانت تريده وتحتاجه مبدئيًا على الاقل، ولكن الواقع المؤلم بغرابته، لا يرتاح إلاَّ عندما يستوقفها بعض اللحظات، يهمس بإذنها أنها لا تستطيع بدونه التقدم، بأي خطوة إلى الأمام نحو ما تريد إلاَّ بإذن منه، فتستدرك أن الخيار ليس بيدها ولو مؤقتًا، فتحبط من جديد. وتعود مريم مرغمة، تقف أمام أكثر المحطات ألمًا ووجعًا، تستحضر من ذاكرتها المزدحمة تستجديها وهي تلتقط أنفاسها الهاربة مع تسارع دقات قلبها لكثير من المواقف المؤلمة التي مرت، تلتقط منها ما تستطيع، تلملمه من هنا وهناك، تلملم وتجمع وتسقط، لتستطيع لمَّ الشمل الكامل لكل حلقات حياتها التي عاشتها برعب مع ماضيها، من بين دفاتر تلك الذاكرة، المتراكمة صفحاتها، تبدأ لتحكي قصتها المثيرة، بداية من سنوات طفولتها الأولى وهي لا زالت تحبو على ركبتيها وكفيها الصغيرين تمسح بهما ما تركه الغبار، تشارك أخوتها والأطفال الأخرين بالحياة، كانت تلعب معهم بالبداية، تكبر وتستعيد من شريط الماضي بعض الصور، أهمهما تلك الصورة المليئة بشخصيات خرافية، غفت عليها جفونها وهمسات دافئة ربطتها بالحاضر.

بدأت مريم تسرد الأحداث تباعًا سعيدة مبتسمة مرة، وعابثة حزينة مرة أخرى، حسب المواقف التي تمر أمامها، تحمل لها كل ما تعلمته من جدتها، تحكي والحنين يملأها شوقًا، لحنان تلك الجدة الوحيدة التي كانت تسمعها، والدموع تغمرها وهي تقول: تعودتُ أن أنام كل ليلة بحضن جدتي على همساتها ودردشتها اللذيذة، منذُ عامي الأول، لم أكن أعي شيئًا من أحاديثها في البداية، ولكل ما كانت تقصه لي، وأنا أتخطى السنة الأولى من العمر، أجل أذكر تمامًا أنني كنتُ وقتها أحبو على ركبتي وساعديَّ وأنتقل من مكان لآخر، لأصل إليها وأتسلق جسدها المتهدل، لأنال حضنها، أجلس وأتكئ عليه، وكأنه الكرسي المفضل الذي خُصص لي واعتدتُ جلوسه، وهي تنتظر تلك اللحظات وأنا أقترب منها، متابعة حركاتي، متلهفة لأصل لحضنها لتضمني وهي سعيدة بي، وبأني أفعل ذلك لأفوز بحنانها، كل ما كان يصلني منها دفئها مع صوتها الحنون الدافئ، ومن ثَمَّ تأخذني، لتضعني على رجليها، تصنع منهما سريرٌ خاص لي وحدي، وفريدٌ من نوعه، لأنام عليه، كنتُ أحب هذه الخصوصية التي تمنحني إياها، ولكي تهز ذلك السرير الذي صنعته لأجلي، كان عليها أن تهز رجليها التي تحملاني، فيهتز جسدها الممتلئ بعض الشيء، يترنم هو الآخر باللحن الجميل، وهو يمتزج مع صوتها الدافئ، وضحكاتها الهادئة الرتيبة، وهي تحكي وتغني بعذوبة رقيقة تسحبني معها إلى متاهات بعيدة لأحلق معها، وهي مسترسلة بترنيمات هامسة متناغمة للحن واحد، تعزفه على وترواحد من أوتار حياتها الهادئة، تأتيني ترددات صوتها وذبذباته الممتعة تدغدغني لأنعم بالأمان ، مع حنانها المليء والمفعم بالأمل والنشوة العذبة كماء نهر يجري، رقراق بصفائه كصفاء قلبها، كان يأتي على سمعي ذلك الصوت، كنغمٍ يخدرني ويسكن جفوني لتغفو عليه عيوني وتهدأ بأمان. بعيدًا عن صرير القلق الطفولي الذي كان يسكنني، ولا أرتاح منه إلاَّ بحضنها الحنون فأغفو بأمان، طفلة كنتُ بمراحل السنواتِ الأولى أكبر، أتابعها ولا زلتُ الى تلك الأيام أحنُ، وأعود مع تراتيل موسيقاها العذبة أنام وأغفو سعيدة، وعندما كبرت بعض السنوات القليلة جدًا، أصبحت الأيام التي تمربي تجعلني أفهمها أكثر، بل أفهم ما كانت تقوله لي، وأردد معها كل ما أسمعه منها مستمتعة. تسترسل مريم متابعة وهي تستعيد تلك الصور الباقية بذاكرتها عن سعادة عاشتها وتقول: أكثر ما كان يشدني إليها هو الشوق لحنان ضمتها لي، وهي تسحبني برقة إليها، وسمعي يدغدغه صوتها الهادئ وهي تدندن لي بأغنية: (يلا تنام يلا تنام لدبحلك طير الحمام روح يا حمام لا تصدق عم اضحك على مريومتي الحلوة لتنام) كل ذلك كان يحدث معي ويعطيني سعادة مفرطة، خاصة وهي

تضعني على رجليها، لأنام عليه وأنا أشعر بالراحة والأمان، كل همها، أن أكون سعيدة ودافئة بالحب والحنان، يأتيني صوتها الهادئ وضحكاتها اللذيذة كغدير ماء صافي، ينساب منها كجدولٍ رقراق، أُحبُها وأُحبُ كل شيء فيها، وهي تحكي لي وتغني هادئة، مسترسلة بترنيماتها، الهامسة كوشوشة عصافير، تغرد بفضاء صباحنا المشرق لشمس لن تغيب أبدًا عن سماء بيتنا الجميل بكل أفراده، تهمس متناغمة، تعزف على وترواحد هووترقليها الحنون، الذي تَعودَ أن يُعطي ولا يمل أبدًا من العطاء. بكل هذا الحب المملوء به قلب جدتي الجميلة وبكل ما فيها ، كنت أعيش الحب معها وأنا أكبر، بالإضافة لحب والديَّ وأخوتي، كنتُ أنتظر الليل عند اقتراب مغيب الشمس، وهي ترسل اشعتها البرتقالية، لتختبئ وراء تلك الجبال الشاهقة عند المغيب آخذه معها النهار بكامله، كنتُ أنتظر كل هذا بشقاوة ومتعة، لأسمع تتمة أخبارها وأسرار حكاياتها الشَّيقة، بعد أن أصبح لي القرار في مشاركتها الرأي والاختيار لأسم الحكاية التي تستحضرها تحكيها لي، تبدأها بكان يا ما كان في قديم الزمان، نحكي ولاَّ من نام يا أميرتي الصغيرة ..؟؟ أرد عليها وكأني أملك أسرار العالم كله من حولي، لذلك القرار العظيم وحدي الذي تخصني به لأقول لها: نحكي يا جدتي .... نحكي.

تعود وتسألني بماذا تريدين أن نحكي، وبماذا نبدأ يا سندريلا هذا العصر و يا أجمل ما فيه.؟

أقول لها: احكي لي يا جدتي... احكي لي... عن الجنية التي تخطف الصغار لتأكلهم، لم أسمع هذه الحكاية منكِ من قبل أبدًا، جميع الأطفال اللذين أعرفهم، يتكلمون عن حكاية تلك الجنية، ويسردون لي الكثير عنها، كيف تخطف الأولاد الصغار، كيف تخبئهم ... ومن ثمّ تأكلهم ... أو تسحرهم ... ليتحولوا إلى حيوانات أو طيور، أو جبال وصخور. ويقولون أيضًا: أنها تسمي نفسها بملكة الثلج.ترد بحنانها المفرط قائلة: لا يا صغيرتي، هي لا تستطيع خطف الأطفال، لأنها أضعف من ذلك، ولأن الأطفال، طيور الجنة على الأرض، غدًا نبدأ لنحكي عنها، ستعرفين الكثير عن ملكة الثلج تلك في الأيام القادمة.

أما اليوم، فدعينا يا صغيرتي نحكي ونتابع حكاية سندريلا، ما رأيك يا طفلتي الحبيبة؟ أهزُ برأسي علامة الموافقة وأنا أتأملها بإعجاب، لتلك القدرة العجيبة التي تمتلكها في سرد حكاياتها، وبشوق أكون معها لأسمع المزيد، أوافق على كل ما تقوله: فقط لأسمع وأسمع، وأستمتع وأنا أصغي بشغف ولذة ممتعه لسماع المزيد منها.

تلك كانت ترنيمتها المعتادة للحنها الجميل، تغريني به لأسبقها إلى غرفة نومي،

وسريري الدافئ بحنان عائلتي كلها، أمي الحبيبة وأبي الغالي وأخوتي الثلاث الذكور الصغار، تطلب مني الذهاب إلى النوم، على أنها سوف تلحق بي فورًا، لتسمعني أجمل حكاية تستحضرها، لترويها لي قبل النوم كما عودتني، ولا تمضي سوى دقائق قليلة، تأتي بعدها ونجتمع معًا على فراش سريري المليء بالدفء والحنان، تحكي لي بعضًا من القصص الحقيقية ومنها الخرافية بل أكثرها خرافية، لأشخاص وهميون، ليس لهم وجود على الأغلب بحياتنا، هكذا كانت تقول لي. ولكن شخصيات تلك القصص، دخلت حياتي أنا وحدي، والتصقت بي، تسللت ودخلت حياتي بصمت دون إذن مني، وسكنت هادئة، تعيش معي وتترك تأثيرها الكبير عليَّ، هو الآخر يقبع معها بصمت، داخل الغرف الصغيرة المظلمة من ذاتي لتسيطر عليها.هذا ما عرفته فيما بعد، وتأكدتُ منه لاحقًا، وأنا أرتاد العمر وأخطو نحو السنوات القادمة لأكبر معها، كانت تطاردني تلك الشخصيات من حكايات الجدة، وتسكن معي أكثر الأحيان وتُتابعني. أترقبها وهي تمر بي بين سويعات وأخرى، تمدني بمتعة وشغف لذيذ وأنا أنتظرها، كنت أعتقد أنها من ضمن حكايات الجدة، ولم أعلم أن خيالي الواسع، هو الذي ينسجها لي لأعيش معها، وأعرف عنها أكثر مما عرفته مع مرور الوقت، وهو يجتاز حياتي بمروره الممل والبطيء، وبسرعته المذهلة بعض الأحيان، كنتُ أستغرب كيف يمضي هذا الوقت بيّ لأكبر معه، بلحظات الطفولة الهشة البريئة من كل آثام الدنيا ومنغصاتها، كيف يمضي ويسجل على حوافي أيامي كل ما يذهلني من مواقف غريبة، وبخوف شديد كانت تمر تلك المراحل من حياتي بعض الأوقات، تجدلهما السرعة والبطيء معًا، تدهشني بالمفاجآت، كما روت لي جدتي بحكاياتها الكثيرة والتي أصبحت واقع، وكلما استعذبتُ حكايات الجدة الحبيبة كلما زاد تعلقي بها، وأصبحتُ انتظرها كل ليلة، تتقمصني شخصيات حكاياتها، وتقص عليَّ قصص أكثر معنى وأكبر قيمة من (كليلة ودمنة، والمهرج، وسندريلا، وعقلة الإصبع، وليلى والذئب) كانت تدخل أبطال تلك الحكايات أعماقي، توجعني مفارقاتها، ويؤلمني عذابها وأفرح لفرحها وأُسعد لسعادتها، وهي تعيش معي، ترافقني وتشاركني يوميات طفولتي المتقلبة، ترهقني بعض الأحيان وتتعب نفسي المزدحمة بأفكار لا أستطيع التعبير عنها، بكل هذه التفاصيل الصغيرة والكبيرة، كنتُ أعيش الحياة ، مع تلك الشخصيات الوهمية والخرافية، ومع الأيام أصبحتُ لا أستطيع القدرة على التوازن معها ومع الواقع حولي، ولا التمييز بين صدق حقيقتها ووهميتها بين الخيال والواقع الذي أعيش .ومع تنوع تلك الحكاية، كانت تتنوع الشخصيات، وتركيبة تلك

الشخصيات، بكل تناقضاتها على اختلاف أنواعها وجنسيتها من حكاية لأخرى، لذلك كنت أحسبها حقيقية وأعيش معها بخيالي الواسع ، مع أسلوب جدتي المنمق اللذيذ بتوصيل الفكرة، هو الذي جعلني أنشد لها لتتمكن مني، لكثرة ما كان يُخيل لي أنها حقيقة يكون اندماجي معها ومصداقيتها كبير، أكثرها وأغلبها كان من أيام زمان بالنسبة لها، كانت تحمل جدتي بذاكرتها المتعبة أحيانًا، بعضًا من سنين العمر التي مرت عليها بالكثيروأرهقتها، كنتُ أستغرب بعض التفاصيل، كيف بوسعها أن تحفظ كل هذا العدد من القصص لترويها لي ولأخوتي الذكور، وهم قليلاً ما يستمعون لها، أو ينسجمون مع خيالها الراوي لنا، تشغلهم أمور أخرى يملئون أوقات طفولتهم بها كغراند دايزر، وغيره، أما أنا، فلا يمكن أن تغفو عيوني السارحة دوما نحو الغيب، إلاَّ بعد أن أكتشف المزيد من الأسرار معها، وأنا أتابع وأسمع تتمة الأحداث للحلقة الماضية، وكأنها فعلا مسلسل للأطفال كتوم وجيري، وعلي بابا والأربعين حرام وغيرها الكثير، ولكني كنتُ أفضل حكايات جدتي على مشاهدة برامج الأطفال تلك ، كنتُ أتحايل عليها بحبي لها، ومع ذلك كنتُ أعذبها ، أعذب جدتي الحنون كثيرًا، وأتمرد عليها بعض الأحيان وأعاندها بقسوة أشعرها، ولا أتراجع عنها، لأني واثقة من حبها لي، أشدُ لها وشاحها الأبيض الناصع البياض، كقلبها المحب الطيب الجميل، أقف منتظرة أن تركض ورائي لأُعيد لها الوشاح، وأنا أُعاند وأسرع بالركض وألف حولها، أحيانًا كثيرة أقع على الأرض عقابًا لي من الله، هكذا كانت تقول لي لتخويفي، ولا أهتم لكلامها وأستمر في معاكستها، لكن بوعد منها أن تحكي لي غدًا حكاية جديدة مليئة بالغموض والأسرار، عند ذلك أتركها، وهي تعدني وترجوني أن أتوقف عن الركض والتنطط حولها كقردة صغيرة، تتابعني وهي تلهث ورائي وتقول أعدك يا حبيبتي بذلك، فقط أعيد لي الوشاح، رأسي فارغ بدونه، أعطيني إياه يا بنيتي، أتمرد عليها بدلع وتعاقبني بمجرد أن تمسك الوشاح بيدها وتمسكني باليد الأخرى، وهي تقول: أنت ابنة شقية يا فتاتي الصغيرة، وكثيرة الحركة، تركض ورائي بثقلها وهي تقول لي لاهثه مقطوعة الأنفاس : يكفي يا مريم ... يكفي يا حبيبتي، أنا لا أستطيع اللحاق بك لكبرسني ارحميني يا ابنتي ....

ارحميني يا مريم من هذا العذاب اليومي الذي تعذبيني به، لماذا تفعلين ذلك بي ،وأنتِ تعرفين كم أحبك دون أخوتك، وأحاول جاهدة لأسعدك وأراكِ سعيدة ومفعمة بالنشاط والحيوية، ألا تعرفين ذلك.؟ ألا تعرفين كم أحبكِ .؟

وأتمرد عليها أكثر، وأزداد شقاوة أكثر وأنا سعيدة، بزهوٍ، وأستغل عاطفتها لي،

لأنها تحبني وأنا متأكدة من حبها لي، وبأنها تتحمل شقاوتي أكثر من أمي وأبي، لذلك تهددني بعض الأحيان إنها ستحكي لأبي عما أفعله بها، وإن كررتُ هذا العمل واستمريتُ في مشاكستها، لن تحكي لي شيئًا من حكاياتها الجميلة والمليئة بالغموض أبدًا، بعد فعلي السافر معها، والخارج عن الأدب كما تقول، لعدم احترامي لكبار السن أمثالها، وتعود وتهددني وهي مصرة هذه المرة بأنها ستخبر أبي بما أفعله معها، وأتابع مشاكستي لها وكأني لم أسمعها، وأتابع الضحك وأنا أركض مبتعدة ومقتربة منها، أدور حولها لأستكين أخيرًا، وأنا أضمها من خصرها وهو الأقرب لي وأقول لها: أنا أحبكِ، وأحبكِ كثيرًا وجدًا يا جدتي ، وأنا فقط أريد مداعبتك، وأعدها أنني سأحاول أن أكون مطيعة في المرة القادمة، ولو لبعض الوقت فقط، لأخذ منها ما أريده، من حلويات وأشياء كثيرة كانت تخبئها لي، وتشدني إليها بلطفها المعتاد، لتعيد تسريح جدائل شعري التي تناثرت وتمردت على وجهي، حين فُكَ رباطها وأنا أشاكسها. هكذا كانت طفولتي معها، وهكذا كنت أعيش لحظاتي الممتعة، إلى أن حدث ذلك التغيير الجذري بحياتنا ولم افهمه، لم أعد أراها. مع الأيام بدأتُ أتعلق بهذه الروايات والقصص الخرافية وأتعود عليها، وأتعلق بجدتي أكثر وأحبها أكثر، أتحايل عليها مرات كثيرة، معتذرة عن عدم تعاملي معها بأدب وتهذيب ولباقة، تليق بها وبحبها الذي تحمله لي بقلبها الكبير، أستغرب كيف بوسع هذا القلب الذي يسكن جوفها أن يسعني، كما كانت تقول لي دائمًا وهي تُأنبني مرات كثيرة، وتسترضيني أُخرى، وأرجوها أن تسامحني، وأنا أقبل يديها الرقيقتين ووجنتها الملساء الناعمة، وأضمها إلى صدري الصغير، لترضى عني، حتى تعود وتقص عليَّ حكاياتها من جديد، بأي وقت من النهار لا يهم إن كان قبل النوم أو بعده، أو في وضح النهار، وهذا كان سؤالي المستمر لها، أسألها دائمًا لماذا لا تغيري موعد ما قبل النوم هذا يا جدتي، ولماذا ترتبط حكاياتك بالليل، لتأتي الأشباح والأرواح وتزورنا كل ليلة.؟ ألا تعلمين أنني أشعر بالخوف منهم وأرتعد لذكرهم.؟؟

يكون ردها عليَّ، هو نفسه في كل مرة، لا يتغير، كما أن سؤالي لها لم يتغير، مع تعاقب الأيام، تقول مبررة ذلك: لكي تنامي وتغفو عيونك الجميلة، يا صغيرتي على همسات الماضي الناعمة الهادئة، التي كنتُ أعيشها أيام زمان وأنقلها لك اليوم، من خلال هذا الماضي تستطيعين العيش، بما يحمله الحاضر مع القادم من المستقبل، الذي يقبع في حضن الغيب، لا أحد يعلم ما يأتي به، الغيب هو القدر يا مريم بكل ما ينتظرنا حُلوهُ ومُرهُ، يأتي ليقدم لنا طريق حياتنا ومشوارها الصعب، كنتُ أسمعها

وأصمت شاردة مع خيالي ينسج لي صورٌ عما تقوله لي، ولأنني تعودتُ على ذلك منذ كان عمري شهور، ولم أكمل السنة بعد، لذلك كنت كلما كبرت تِكثرتساؤلاتي الغريبة، أحيانا تجد جدتي لها أجوبة، وأحيانا تتعثر في الجواب، تصمت برهة، ومن ثُمَ تعود لتتابع قص حكايتها متجاهلة سؤالي، كان ذلك يشعرني بضياع، يتركني أبحث عن شيء لا أفهمه، يحصا ذلك لي عندما لا أجد الجواب، ولا يَردُ عليَّ أحد لكل ما أنتظره من أجوبة، مفيدة تشفي فضولي وتساؤلاتي الكثيرة.

جدتي الجميلة اللذيذة تروي لي أيضًا ما سمعته من حكواتي أيام زمان، لزمن طفولتها، هو خلاصة ما سمعته من جدتها العزيزة أيضًا المحبة لها، بعد أن علمتُ أنه كان لها جدة مثلي وكانت تحبها أيضًا ، وماتت تلك الجدة عندما كانت جدتي في ريعان الصبا، ومع مرور الزمن أصبح توارث تلك العادات القديمة، يضمحل شيئًا فشيئًا، ولم يعد لها وجود بعصرنا، هذا ما كانت تخبرني به أيضًا، خاصة أن كل حكاياتها أصبحتُ أراها على ال TV تُعرض بالصوت والصورة، ومع ذلك كنت أحب سماعها من جدتي، كنتُ أعيش بزمن التكنولوجيا الحديثة ، والأنترنت وملحقاته المتعددة الطرق للوصول إلى المعرفة وإلى كل ما يريده الإنسان في هذا العصر الكبير منه والصغير. لذلك أصبح لديَّ اليوم أكثر من وسيلة وطريقة أستغلها، تملأ فراغ طفلة مثلي، تخطت فيها سنوات العمر الأولى، لأمضي الوقت الضائع، بشيء مفيد وذو أهمية، بدلاً من هدر الوقت، بطوله وعرضه بتوافه الأمور، دون أية فائدة تذكر هذا أيضًا تعلمته من جدتي الحبيبة، كما قالت لي: أن كل شخص يختار حسب هواه، هذا ما جلبته لنا الحضارة معها من تقدم، غيرت أنظمة الحياة بكل أشكالها ومفاهيمها، بنقلة كبيرة، جاءت على دفعات السنين، من التقدم بين أسلوب القديم والحديث، لاقتناء المعرفة والبحث عنها، الزمن القديم لا يُفنى، لأنه يحمل في جعبته الكثير والمفيد على مر العصور وتواليها، هكذا هي الأزمان نتوارث معرفتها لتَخلقُ الجديد، هذا ما كانت تخبرني به جدتي الحبيبة، كل ليلة لي موعد معها أنتظره بشغف نحن الاثنين معًا، تعطيني هذه القيمة من المعلومات حتى وإن كانت قليلة ولكنه كثيرة بالنسبة لها، تعتقد أنها لم تبخل عليَّ أبدًا وتعطني من الماضي والحاضر الكثير، وتقول ليَّ دائمًا: كل زمن يا مريم يختلف عن الذي سبقه، ولكن الثوابت الأساسية تبقى يا أميرتي، بالإضافة إلى أننا اليوم، أصبحنا نعيش بعصر السرعة ، هذا ما قالته لي جدتي، الذي يتحدث عنه الجميع، كبار وصغار، حتى بتُ أشعر كأني كنتُ أعيش بعصر السلحفاة، هكذا كانت جدتي تمرر الوقت لتهرب من أسئلتي الكثيرة، وتتابع

معي وهي سعيدة، تروي لي بعضً مما حدث معها أيام الصبا والشباب والأحلام الجميلة التي عاشتها، وأنها عاشت بزمن، يختلف عن زمن هذه الأيام، بكل المقاييس الحضارية والتكنولوجية، الغريبة التي تشهدها اليوم وتستغربها، وهكذا تعلقتُ بها أكثر مما يجب، وأصبح ما تخبرني به، هو القيم الحقيقية والمتعة الكبيرة بالنسبة لي، والشيء الأساسي بحياتي، تأخذني معها برحلة نمتطي عربات الخيل وأعيش بعض الأوقات الجميلة من زمنها الجميل كما تسميه دائمًا، كل ذلك من خلال حكاياتها المشوقة، وشيئًا فشيء بدأ عندي نوع من التحري الخاص، لأبحث وأستقصي عن تلك الشخصيات الوهمية، التي تحدثني عنها وتعيش معي تلك القصص الغريبة، أبحث عنها وعن كل ما اتابعه معها وأسمعه، رافقتني ألعابي وأسميتها بأسماء بعض شخصيات تلك الحكاية، بتلك الفترة، وأخذتُ اصنفها وكأني تحرٍ خاص، أبحث لأحلل وأُرَكِب تلك الشخصيات بكل التفاصيل الغامضة والمرعبة لها، يحولها عقلي لشخصيات حقيقية، بأدق الحركات المشوقة ليزداد شغفي بها، وأتواصل معها ، لأعطيها روح وأنفخ بها الحياة لتعيش معي، وترافقني وكأنها أرواح لأجساد أستخرج تفاصيلها من خيالي وأرسم ملامحها الغريبة من بين الواقع الذي أعيشه، وبين ما أسمعه، هنا كان يبدأ خيالي يعمل وينسج أشكال لها أجساد، ومع الوقت أصبحت تسكنها أرواح من صنع خيالي أيضًا، كان أول ما بدأته مع ألعابي، جعلتُ منها شخصيات حقيقية وقاربتُها من حكايات الجدة وعايشتها معي بتفاصيل وهمية ولكنني ماديًا أمسكها وأتفاعل معها، خاصة عندما بدأتُ أمضي أكثر وقتي معها، أستطيع السيطرة عليها، أُحركها كما أريد، لتفعل هي ما أريده منها وهي طائعة تسمع أوامري وكلامي كما أسمع أنا كلام أمي أو جدتي وأبي وكل هؤلاء الكبار من عائلتي، بذلك استطعتُ أن أجعل لنفسي إمارة، أو عائلة خاصة بي احكمها وأحركها كما أريد، كالعبة الدمى المتحركة، لا أعرف تشبيه لها لأصفها به، لكنني أراها بأبعاد مختلفة لانصهارها بواقعي. جاء يوم غريب مرَّعلي ملتحفًا بسواد لثياب تلف الجميع، مرافقة لوشاح أبيض، وكآبة وحزن يحيط بأهلي، لم أفهم تفسيرًا لتلك الحالة، والحركة الغريبة التي غمرت البيت وأهله، حزن أمي وأبي وبكاءهما معًا، وكثرة الناس يدخلون بيتنا، من جيران وأقرباء لأمي وأبي، وعمتي الوحيدة، وأخوة أمي ، ومعارف كثيرون، ازداد تواجدهم لزيارتنا طيلة أيام، وصوت لبعض آيات القرآن والذكر الحكيم ، كنت أسمعه في البيت على غير العادة، حركة غريبة في المنزل لم أفهمها بذلك الوقت، لأن أمي أرسلتني وأخوتي عند جارتنا أم سلمى، لنلعب مع الأولاد

الصغار، لم أفهم شيء في البداية، ولكن مرور الأيام، على انتهاء تلك الحالة عدنا إلى البيت، وعرفتُ أن جدتي توفت، بل ماتت وذَهبت إلى السماء، وأصبحت مع الملائكة تنام وتأكل وتشرب معهم، وتركتني وحدي، وأنني لن أراها بعد اليوم ولن أسمع حكاياتها أبدًا، ولكنها تراني وتسمعني وهي معي دائمًا لذلك يجب عليَّ أن أكون كما تمنت لي دائمًا طفلة مطيعة ومهذبة، وتحترم الكبار في السن مثلها، لم أستوعب كل هذا ولكن بعد وفاة جدتي تملكتني وحدة غريبة لأنها تركت فراغ كبير بنفسي وبحياتي الصغيرة ، والتزمتُ بغرفتي ومع ألعابي أكثر الأحيان والدموع لا تفارقني، وإذا لم تسحبني أمي أو تحملني لتخرجني من غرفتي الصغيرة لا أخرج أبدًا، لأني أصبحتُ منطوية على نفسي أعيش مع ألعابي، ولا أتحرك بأي مكان بالمنزل. ذات ليلة من ليالي الشتاء العاصفة ، وبرده وصقيعه القارص، قالت أمي وهي تُحدثُ أبي، أنها تسمع ضجة كل ليلة، كأن هناك شخص ما، يحرك بعضً من قطع الأثاث في البيت، تهيأ لنا جميعنا من خلال حديثها أننا نسمع معها تلك الأصوات، وقلت لنفسي أنها روح جدتي تأتي إلينا، لأن تلك الأصوات دائما تأتي إلى سمعنا في الليل، وأكثر الأحيان، وتحديدًا في ليالي الشتاء، لأنها حزينة، ولكن أحدنا لم يكن يجرأ على الحديث والبوح بذلك، والتكهن بما يجري كل ليلة، لذلك عندما أثارت أمي هذا الموضوع استنفرنا جميعنا، لكن أبي الوقور المتزن عقلاً، لم يترك لأمي ولنا، أي مجال لأن تسرح بنا، أية مساحة من الخيال وتأخذنا لأبعاد مختلفة، من التوقع لأشياء سيئة، أخذ يشرحها لنا ونسمعها منه الآن لأول مرة يحلل ظهور تلك الأصوات، بذكاء منه، أو كيلا يسكن الخوف داخلنا بأفكارنا المرعبة، لكل هذه الأسباب قدم لنا عدة تفسيرات، أولها أنها أنابيب التمديد تتقلص بسبب البرودة الشديدة وتتمدد، وأنها طقطقة الأخشاب الخزن بالمطبخ وغرف النوم التي في البيت، وعلل ذلك بأشياء أخرى كثيرة، لم اتابعها معهم، لأني وحدي كنتُ قد عولتُ ذلك، وقررت على أنها أرواح غريبة تدخل البيوت في الشتاء لتشعر بالدفأ مثلنا، ومعها روح جدتي، تأتي لتدفئ معنا كما تعودت، هكذا كنت أفسر تلك الظاهرة التي يتحدث عنها ابي وهو يشرحها لنا مستفيضًا ولكنه لم يقنعني. لا أعرف لماذا ذكرتني تلك الأحداث، بشيء غريب كان يحدث معي، بأنني كنتُ أسمع بين حين وآخر، صوت أمي يناديني، وأمي لا تكون موجودة في البيت معنا، تكون في زيارة لإحدى الجارات أن تمضي بعض الوقت في التسوق ، كنتُ أستغرب وأنا أشعر بالخوف، وأتساءل من أين يأتي صوت أمي ، أسأل أخوتي عمار وضياء: هل يسمعون ما أسمع .؟وكأن البيت مسكون بالأرواح ... لا أعرف كيف أفسر ذلك،

ولكني كنت أسمع هذه الجمل كثيرًا من بعض الجارات عند زيارتهم لأمي.كان يَردُ أخوتي على تساؤلاتي، والأثنين معًا، أجل سمعنا أمي تناديك يا مريم ، هو صوت أمي نعرفه، ولكن أمي ليست موجودة بالبيت وليست معنا هنا، ونسأل معًا صوت من هذا إذًا.؟؟ونشعر بالخوف جميعنا، ونتكوم بجانب بعضنا حتى تعود أمي من زيارتها أو قضاء حاجاتها، وعندما نتأكد أن باب البيت يفتح وهذه هي أمي، نركض إليها نتعلق بثوبها ونخبرها بما حدث ولكنها كانت تبعد الخوف الذي يظهر علينا، وتقول أنها تهيأت يا أطفالي لا أكثرولا أقل. كل هذا كان يحدث معنا ليؤكد لي مع مرور الوقت، أن أمور خارجة عن الطبيعة، تحدث معنا وباستمرار، ما هي لا أحد يعرف ليفسرلنا هذا الغموض. إلى أن كان يوم، استيقظتُ فيه ذات صباح، على رائحة أخاذة، مميزة من زهر الليمون والياسمين، روائح جميلة تفوح في بكل أرجاء البيت، ونحن لا يوجد لدينا حوض زراعة لأي نوع من أنواع الزهور، ولا وجود لأي شجرة مثمرة أو غيرها بمنزلنا، وأمتلأ أنفي بتلك الرائحة، التي أخذت تمتزج مع رائحة للأخشاب المحروقة، التي تحدث معنا بفصل الشتاء أيضًا، ونشم تلك الرائحة عادة طيلة الشتاء وبدون أن يكون هناك أي حروقات للأشجار، أو البساتين، أو هكذا يخيل لي، أن هناك أمور تحدث لا يوجد سبب لحدوثها، كتلك الرائحة التي ترتبط بالشتاء حصرًا، بدون أي أسباب لها، منها تلك الرائحة التي لا زالت تعيش في ذاكرة جميع الروائح، وتستيقظ معي ومع هذا الصباح، مع أني كنت أعلم وأميز، أن تلك الرائحة ممكن أن تأتي إلينا، مع قدوم الشتاء من كل عام عندما يأتي، سيحمل مع برده وأمطاره وعواصفه، عطره المميز، ليتحفني شخصيًا به، بتُ أعرف يقينًا، أن له رائحة خاصة به، محملة بعبق السنديان وخشب البلوط وشجر الحور، التي تنعش قلبي الصغير كل عام وتأخذني وتسرح بي بين خيالات واسعة من التأمل نحو الأبعد، بالرغم من أننا في عز الشتاء، تابعت مع مخيلتي الطفولية وأنا أنصت معها ونسمع كلينا، تلك الأصوات لشخصيات حكاياتي الكثيرة تتحرك بها مجموعة ألعابي من الدمى والعرائس والحيوانات من دُب قطبي إلى سلحفاة بائسة، إلى كلب صديق، أو قطة ضالة تبحث عن مأوى لها، هؤلاء هم أصدقائي المقربون، نتابع معًا مجريات ما يحدث لأنواع شتَّى من الخيال، وبسطوة وسيطرة مني فرض تسميات وأصوات تناسبهم لأميزهم عن بعضهم البعض، وأيضًا اخترتُ لهم أسماء، أصبحوا لا يتركوني أهدأ بسلام، يتسللون إليَّ، يأخذوني من نفسي، يشاركوني تلك الغرابة التي دخلت حياتي معهم وكانوا من الأسباب المهمة، لأعيش تلك الحالة من التغيرات. علمتُ فيما بعد، وأنا أمر مع الأيام من عمري كرحاله، أن

هناك إشارة تأتي إلينا من السماء كصرخة، قد نفهم معناها، أو لا نفهم، تشق عنان الليل بسكونه في ظلمة شتاء قارص برده، أو صيف حارق لهيبه، أو خريفٍ يلفظ أنفاسه الأخيرة لمولد ربيعٍ قادم، فتهيج النفس بولادة داخلية غامضة نتلقاها نحن أهل الأرض، تحمل معها الكثير من المعاني والتفسيرات، تبشر بحدوث أمور ستأتي، فيها الكثير من المعجزات لخوارق قد لا نفهمها، مهما حاولنا واجتهدنا، تحدد مسار حياتنا، تأخذنا لاتجاه واحد كشهاب خاطف، لا انعكاس له، شُهبٍ تسقط من السماء تسكن جوف الأرض، أو تسبح مخترقة عمق البحار، أو تقصد بعض البشر، تحدد المسار الخاص بها دون مواربة، متجهة نحو الشخص الذي تقصده و تستقطبه.!!

كل هذا كان مجرد احتمالات وفرضيات، لتلك الصرخات التي كانت تأتي وتشق الليل وتؤرق نومي، نسمعها أحيانًا، وبعض الأحيان لا نسمعها ولكن نحسها، وقد لا يكون لها صدى، ووقع مؤثر على أكثر الأشخاص، هكذا تكون البدايات لتجلي بعض الأمور من الأحداث المفرطة بالتعقيد لمن هما، مكشوف حجاب الرؤية عنهم، كما كنت أسمع في بعض حكايات جدتي.

تلك كانت بداية، أو الإشارة الأولى التي أخذتني وسارت بي لعالم مختلف، من بين الوجود لغير الموجود، عالم عجيب بكثرة غرائبه. أول بدايتها كان تلك الليلة، الغريبة بغموضها، عندما استيقظ أهل البيت على صرخة مدوية،

كادت تشق سكون الليل بصدى مخيف، كان لها صدى كبير ومرعب، غيرت الكثير بحياتي، وتركت أثرها الخاص عندي، لذكرى مميزه بنفسي، لليلة لن أنساها ما حييتُ، بدايتها عندما تململتُ وأنا أفتح عيوني بكسل ، متكومة بل مكورة الجسد ملفوفة ببعضي كنت بسريري، صحوتُ على ضجيج خافت حولي يرافقه همسات متوترة، فتحتُ عيوني تمامًا، لأرى جميع أهلي ملتفين حولي، أمي وأبي وجدتي وأخوتي الثلاثة الذكور، عندما أحست أمي أنني استيقظت تمامًا، لاحظتُها تقترب مني بحذر شديد إلى أن أصبحت بجانبي جلست على طرف السرير، أخذت تقترب بجسدها بحذر، مدتْ يديها لتحضنني وهي تُسمي بالرحمن، وتقرأ بعضًا من آيات القرآن الكريم، أخذتني بحضنها دامعة العينين، بعد أن مسحت على وجهي بيدها الرطبة بالماء، وأعطتني قليلاً منه، بكوبٍ كانت تمسكه بيدها الثانية. استغربت مندهشة لِمَا كل هذه الجلبة يا أمي، وهذا الاهتمام المفاجئ، وبهذه الساعة المتأخرة من الليل، أعرف أن الحب يملأ قلوبكم، لكني أرى تصرفاتكم غريبة بكل أبعادها، أراهم فجأة

أمامي ملتفين حولي، مصفوفين وأحدهم بجانب الآخر، يتأملوني بنظرات يملأها الخوف والقلق، شيء غريب ماذا حدث، بمنتصف هذه الليلة، ليجتمعوا هكذا وهم يلتفون حولي، بهذا الشكل المقلِق والغريب؟

لم أكن أعلم أن صرخة غريبة صدرت عني، وشقت سكون الليل، كانت تلك الصرخة هي صرختي التي أيقظتهم من النوم مرعوبين، هرعوا إلى غرفتي مسرعين كأنهم في سباق، وأحدهم يسبق الآخر ليصل قبله، أخذ الجميع يسألني كُلٍ بدوره: ماذا بك يا مريم. ؟؟

تأملتهم صامتة مستغربة، أنقل نظراتي بينهم متسائلة ماذا حصل ... ماذا بكم. ؟؟

رأيت تلك النظرات التائهة على وجوههم مستغربة صامته، وكأنهم يرون شخصًا آخر لا يعرفونه، وكأني لستُ أنا مريم ابنتهم، لا يمكنهم إخفاء تلك النظرات الغريبة، على سمات ملامحهم والتي أخذت لها شكلٌ آخر مختلف على وجوههم، أخذت تلفني بصمت قاتل، تتناقل هي الأخرى فيما بينهم، لألف سؤال وسؤال مرسوم بدقة شديدة ومخفية، هكذا كنتُ أرى وجوههم الحبيبة تلك الليلة تتراقص على ملامحهم صور مخيفة، من ثم كسر أبي بصوته جدًار الصمت الذي غلفهم حين قال: لا شيء يا مريم ... لا شيء يا حبيبتي، خفنا عليكِ أن تَصحِي على صوت الرعد، فالمطر غزير هذه الليلة، يصاحبه الكثير من البرق والرعد، على ما يبدو أنها ليلة شتاءٍ عاصفة بالرعد والبرق، أتينا كل واحد منا يسبق الآخر لخوفنا عليك من الرعد الذي تخافينه، خوفًا ألا يكون أرعبكِ، ولنطمئن عليك ثانيًا، ها أنتِ أخيرًا بخير يا ابنتي، ولم ينتهي من كلامه بتلك اللحظة حتى أخذ البرق يلمع وعاد صوت الرعد يشق الليل برعوده المخيفة من جديد، والمطر يضرب على زجاج نافذتي بقوة، كأنها صرخات لأشخاص حقيقين تريد الاختباء هاربة منه، كأنه يريد أن يخترقها ليُدخل الثلج والبرد إلينا، صرختُ أُنادي أمي .... أمي ... أمي، تشبثت بها أدفن رأسي بحضنها، ضمتني هي الأخرى إلى صدرها بشدة وهي تقول لي : لا تخافي يا حبيبتي، لا تخافي أنا معكِ لن أتركِكِ أبدًا قبل أن اطمئني عليكِ، أخذت تشدني إليها لتحميني من صوت الرعد، ليخف وقع صوته على أُذني، أخذت تقرأ بعض الآيات القرآنية وهي لازالت تشدني أكثر لحضنها تلفني بيديها تملئني دفئًا لأستكين، كنتُ وقتها مطمئنة إليها بهدوء وراحة لأني بحضنِ آمن تعودتُ الاستقرار فيه. عندما هدأ المطر بعد فترة ليست بقصيرة، وانتهت تلك العاصفة، قبلتني أمي على جبيني وهي تتمنى لي ليلة سعيدة وتقول لي: هامسة عودي للنوم كما كنتِ يا حبيبتي الصغيرة ، هدأ كل شيء الآن وتوقف المطر والرعد والبرق، فالليل

لازال بأوله، أحكمت عليَّ الغطاء جيدًا وطمأنت أنني بخير وخرجت وأغلقت الباب وراءها، وعادت تلك الهلوسات تجتاح عقلي من جديد. !!

أخذ النعاس يغلغل بي وأخذني لنوم عميق بعد وقت وجيز، كأن حضن أمي خدرني بدفئها، لأعود للنوم مستسلمة مرتاحة السريرة بعد ليلة شتاء مرعبة لم أعرف تفاصيل ما حصل لي.!!مرت تلك الليلة مع مرور الأيام، لكنها تركتْ علامة فارقة لأيامي القادمة، برغم أن ليالٍ شتاء كثيرة تتالت علينا من كل عام، تمر بعواصف أشدُ قسوة بثقلها، ولكنَّ هذه الليلة التي زعقت فيها السماء صارخة، وهي ترسل كل ما بجوفها من برقٌ ورعود وماء، نفضت ما بقلبها مخبئ كان، لتجدد استقبال الآتي من مفاجآت الشتاء القادم، غيرت بداخلي الكثير ونفضته، أنا أيضًا نقلتني محطة صغيرة إلى المحطات كبيرة لأتوقف عندها، والكثير من التساؤلات تدور بفكري تجدده، ولكن أكثرها كان بلا جواب، ولم أجد لها بعض من الأجوبة الضائعة، تركها الزمن بصمة على مسار حياتي القادمة، حملت معها كل التغيرات التي حصلت معي لاحقًا. تلك الصرخة بقوتها أخذت لها مسار، غَيَر خط من الخطوط المتشابكة بداخلنا، حفزت شيء لا نحبه، ولا نفهمه، بدأ انطلاقها من صدري الغافي بصمت، أطلقها صوتي النائم بغفوة، إلى السماء، حضنتها الأرواح الشاردة وهي تنتظر تحرير روح جديد من جسدها لتلتقي بها وتأسرها، كان أول من تلقى تلك الصرخة هم أهلي، كانت صرخة لصوتٌ يجرحه الخوف له صدى مرعب كما فهمت منهم لاحقًا، ترك أثره الكبير عليهم أيضًا، والأثر الأكبر كان عندي، محجوب عليه بحجاب ضمن تعويذة لم أستطع فك طلاسمها، لأقرأ ما كُتب فيها، لغتها غير مفهومة، وغير مقروءة ، بالنسبة لي كانت بذلك الوقت، بتعاقبه على تلك الليلة، أيام وليالٍ أخرى شبيهة بمثلها مرت، لم يقف عندها أحد، هي أيضًا لم تترك أي أثر.

مضى الشتاء حاملاً عواصفه مع حزمة من قسوته، من رعد وبرق ومطر غزير، كنتُ أنتظر رحيله بقلق، وها هو يرحل ويبتعد، ولم يبقى منه إلا القليل ، تعودت فيما بعد على تغيراته، وانتظار مروره علينا من كل عام، كنتُ أنتظر أيامه الأخيرة قبل نهايتها بقليل، لأستمتع برحيل أيامه العاصفة حين تهدأ ثورة الطبيعة ويعم سكونها بالربيع، وهي تحاول الامتزاج بسحر خاص تربط بين دورته الجديدة، لنهاية شتاء وبداية ربيع، ممزوج بالطين وأوراق الخريف وبراعم زهور ونباتات تتحضر لولادة جديدة للطبيعة والحياة، ومع تعمق ذلك السحر الممزوج مع أفكاري، عرفت قوة وسر تلك العلاقة بين أسرار الطبيعة المرافقة والمشابهة لدورة الإنسان الغامضة،

التي تميز وتختص بها النساء دونًا عن الرجال، وبشكل أسرع، ربما لأنهن في كل شهر تمر على أجسادهم دورة مشابهه لدورتهم، الخاصة بأنوثتهم كدورة الطبيعة الكاملة بفصول السنة الأربعة، التي تبدأ مع دورة القمر من الهلال إلى يتدرج ليصل إلى الذروة يشكل البدر ومن ثُمَ يتراجع بالنقصان ليعود إلى بدايته كهلال ويختفي ليعود من جديد مع قدوم شهر جديد، ودورته هذه تعني الولادة والحياة والاكتمال لكل شيء، هكذا تدور الحياة القمرية لتصل دورتها للنهاية المفروضة لذروة المعتادة، ويبدأ من جديد، يشكل الحياة والموت والتحدي، هذا ما فهمتُ لاحقًا أن كل هذه التغيرات تمثلها دورتين، دورة القمر، ودورة الشمس، ودورتنا نحنُ، لكلٍ منهما حكمة، حكمة القمر هي التي تقود حياتنا بتفاصيلها وتقودنا أيضًا إلى النهاية، نهاية أي شيء يشكل حياتنا، وتُمَثل لدى العرافين بنجمة خماسية، كما أنها كانت رمزًا لساحرات عاشوا تلك الحياة، قبل أربع مئة سنة كما كُتبَ عنهم بكتاب الظلال. !! ألسنا كالقمر ندور حول فلكنا الذاتي لنكمل دورة الحياة المكتوبة لنا. ؟؟يشكلنا جانب مظلم، وجانب مضيء، يلفنا الغموض حينًا والوضوح أحيانًا. ؟؟من خلال ذلك بدأتُ أفهم وأعيِ تمامًا، أن شخصيتنا ملونة بألوان شتَّا من الجينات. غلافنا الخارجي، هو أنسجتنا الجلدية التي تحيط بنا، والرخوة قميصنا الداخلية، تتشابك كلها، تحتل تكويننا الجسدي المصنوعة منه بقية الملحقات، من عظام وأوردة و شرايين وكريات حمر وأخرى بيض، قلتُها هنا وكثرتها هناك، تعطي المناعة أو تقلصها، احشاءنا الداخلية بملحقاتها كلها مع بعضها تشكلنا، نصفنا أبيض والآخر أسود مليء بالأمراض والصحة والوسواس كله متناقض، تمامًا كما الطبيعة، الاختلاف الوحيد هو تغير فصولها الأربعة عندما ترتاد حياتنا، نشعرها حولنا، كل شيء بالطبيعة صامت، نشعر بهذا الصمت يقبع بداخلنا، نراه فقط لو تَأمل كل فرد منَّا المحيط الخارجي حوله من الطبيعة، كيف تنمو الأشجار، والأزهار، والأعشاب وتتشكل الصخور والجبال، كل ذلك يحدث بصمت... وفي صمت مُبهر بالإعجاب والإعجاز الإلهي الذي يتحدى الكون والطبيعة وبقية المخلوقات من أسرار وجوده في معجزة الخالق لخلقه.

كنتُ أتساءل كثيرًا كيف يتحرك القمر، والشمس، والنجوم ... كيف لها القدرة على أن تتحرك بصمت ونحن نتحرك بضجيج.؟؟

عندما ندرك هذا الصمت، سندرك إلى أي مدى نحتاجه، كي نكون مؤثرين. وأن الإنسان وحده المتحرك بضجيجه الوجودي ليعمر هذا الكون الصامت بحركته. الإنسان والحيوان هما المتحرك الأساسي، الأزلي والأبدي بهذا الكون .. لأجل حركتهم،

خُلق الكون، ولهم خُلق الصوت والصمت والصدى. !!تعمر الأرض بالبشر.... والنهار بالشمس ... والليل بالقمر.... والسَحَر بالنجوم والفلك. كل هذه مفردات خُلقت لتكوين التغليفة الأساسية لتشكيل الكرة الأرضية وللحياة عامة لسائر الكائنات. نحن البشر بماذا نعمر هذا الكون؟

هذا سؤال سألته لنفسي مرات .. كان الجواب من خلال آدم وحواء، الجنس والولادة والنسل .. تشابُهنا مع الطبيعة وجميع النباتات جميعها تتشابه بالنسل، مثل كل الكائنات تتوالد بالجنس عن طريق الذكر والأنثى..؟؟

يأخذني هذا البعد من الرؤية خارج الوجود، يأخذني لما وراء الواقع، أرى كم نحن نشبه الشمس كما نشبه القمر، لكل منَّا بريقه الخاص، بريق العين، بريقنا يسكن في العين، لأن العين هي المشع الوحيد بهيكلتنا وكتلتنا الجسدية كلها، هي مرآتنا الخاصة، نرى منها القرين الذي يناسبنا، نتبع من نريد أن نتبعه بالعين والرؤية، وبالبريق نسحبه، منها ... من العين نقرأ فيعرف كل شخص من هو توأمه الروحي، يسعى إليه مشدود بألف حجة وحجة، ليلتحم معه ويكمله، عند تلك النقطة من الالتقاء الروحي، يلفظ العالم أنفاسه من كلا الجنسين في روح الأخر، لتوقظ ما يملكونه من معرفة موروثة عن الأجدًاد، يتشكل نسق الكون، وإذا كان بإمكان الفرد العثور على توأم روح، لجسد ما، فكل إنسان عبر حكمة الشمس، سيكون له بريقه الخاص لضوء في عينيه، يستطيع أن يسكُبه، في عين توأمه الذي يبحث عنه بهذا الكون لتسكن اليه الروح.

في لحظة ما من هذا السكون الداخلي، يتسلل ليأخذني هو الآخر لعزلة نفسية، تجعلني تلك العزلة النفسية أسيرةَ لحواسي الخمس، بعيدة عن كل من حولي، متقوقعة داخل ذاتي، أتهيأ نفسيًا وأستعد لاستقبال أي إشارة خارجية للروح التي تسكنني، تصيبني برودة بأطرافي، يرتعش لها جسمي كله، ينتابني إحساس بالارتباك، وأرتعد من هول الصدمة، ومفاجأة الكون، تبدأ مشاعري الخاصة تتجمد، ها قد أصيبت بالتشوش وربما بالشلل المؤقت أو النصفي لأطرافي الأربعة، وربما بشيء آخر أصيبت، فتبدء عندي حالة من تدافع الأفكار لتكوين حالة من الدفاع لتجنب مواجهة أمر ما، يفاجئني به الغيب، ولا أتمكن من إحداث أي تصور له، لأفهمه وأتبين ملامحه التي تباغتني على حين غفلة، فأتوه بدوامة البحث عن الذات الشاردة، أصارع المستحيل لألتقي مع أفكاري الشريدة مني هي الأخرى، ضائعة أكون بين حدود المعقول واللامعقول.

لكنني مع الوقت تعودت، ربما حين بدأتُ أفهم أن الناس منذ آلاف السنين، يبدؤون في البحث عن هوية ذاتٍ خاصة بهم، منقسمة عنهم منذ ولادتهم، إدراكهم يقول لهم: أن هناك جزء منهم مفقود، يحسون ذلك بالفطرة التي خُلقوا عليها، هم يبحثون عن بعضهم البعض، ومن خلال البحث عن نصفهم الآخر المفقود، يلتحموا به عندما يلتقي كلاٍ بنصفه المكمل له، هناك من يجد هذا النصف فيساعدهم في تشكيل ذاتهم الشاردة، وهناك من يجتهد ليجد شق روحه الآخر فيهيم بين الفضاءات، وأحيانا يلتقي الشخص بأكثر من توأم في التجسد ذاته، وللمعنى نفسه، تندمج الجسدية بالروحية ليتشكل شيء ما غامض فينا، كأنه مبعوث من كوكب آخر ليحقق رسالة ما لهذه الحيوات.

أتعبني هاجسي المحمل بالقلق والحذر، إلى أن بدأتُ أفهم بعض الأمور، منها كيف تتشكل حول جسمنا طاقة أو هالة ذبذبية غير مرئية هي (الجسم الأثيري) وهي متغيرة بكل لحظة، فيها معلومات الجسم والفكر والأحاسيس كلها، كأنها شيفرة مكتوبة لكل شخص، تكون تلك الهالة الأثيرية نقية صافية ولونها فاتح عند الأفعال الحسنة والصحيحة، وتكون مضطربة ومشوشة ويميل لونها إلى الألوان القاتمة عند الأفكار والنوايا والتصرفات السيئة، تمامًا عندما يأتني بعض الأحيان، إن لم أقل غالبًا، نوع من التفسير الكارمي، لعلاقة الإنسان بأفعاله، وما يترتب على تلك الأفعال، لأحدد المعنى لكل ما يمر بالحقيقة، وأسأل هل أفعال الإنسان هي التي تجلب له السعادة أو التعاسة. ؟؟

ويأتيني الجواب : بنعم الإنسان بأفعاله هو من يستطيع ذلك..! هكذا تتعاقب عليَّ فصول العمر وأنا أجتاز الدهاليز الأولى من المعرفة، لتلتحم وتنسجم هذه الروح الهاربة من الجسد وهي تبحث بفضاء اللاوجود. مستغربة أكون بسؤالي الدائم، كيف تصبح كلها منسوجة بتوليفة الكيان الجسدي لكل شخصية، منها تتشكل دورة الحياة المتشابهة لكلٍ من الأرض والسماء والبحر والطبيعة والإنسان. إذًا لكل منَّا دورته الخاصة، لكنها جميعًا تكمل بعضها البعض وتتشابه في تحديد الكون ضمن مساره الخارج عن الطبيعي.

كل الليالي تمر بي متقلبة، يذهلني عدم توافقها وغرابة ما تحمله معها من أسرار تفاجأني، وهي تروي لي الكثير من الحكايات التي خزَّنها عقلي الافتراضي، أتوقف عندها، أتأمل... ما هذا الضجيج ... أسأل ماذا يحدث بين ضوضاء الحياة على هذه الأرض التي نعيش بها، عند تغير الفصول واستبدال الطبيعة بثوبها الصامت لهذا

الكون، فقط عند تغير فصولها تُثير ضجيجًا مرعبًا. ؟؟

بين شتاء وشتاء هناك ربيع، وبين صيف وصيف هناك خريف .... فأيٍ منهما يعكس تلك الحالة المنفردة، حين يجذبني ذلك السحر الغريب ... للناس ... للأشياء للأحداث المتفاوتة الغرابة، لتلك الأحاديث التي تدور بين الأهل وسكان الحارة، أترقبها، أسمعها، أصغي لها صامته، تشدني كما شدتني مرة عندما سمعتُ أمي تقول لجارتنا أم محمود بذلك اليوم عندما جاءت لزيارتنا مستنجدة بأمي لتحل لها مشكلة ابنتها الصغيرة سلمى.

سلمى هي الصديقة الأكثر قربًا لي، صديقتي بالمدرسة وبالحي الذي نسكنه، لم نكن تتجاوز الخامسة من العمر بعد عندما تقاطعت معنا تلك الهالات العجيبة من وراء الغيب.

كنا نلعب معًا نتحاور ونتجاذب حول الكثير من الأسئلة، كلما جاءت مع والدتها لزيارتنا، أو رافقتُ أمي عند زيارتها لهم. زيارة أم محمود لنا هذه المرة، لم تكن عادية ابدًا، أولها عدم اصطحابها لسلمى معها كعادتها في كل مرة تزورنا فيها، ثانيها الحديث الذي دار بينها وبين أمي، لم يكن عادي أيضًا، زيارة غريبة، لم تكن كالمرات السابقة، التي تعودتُ وسلمى عليها، لكل هذه الأسباب مجتمعة كانت زيارة غريبة بمضمونها، خاصة عندما سمعتُ الحديث الذي دار بينهما، جارتنا البائسة تلك شكتْ لأمي خوفها على ابنتها، أخذت تروي لها ما يحدث لسلمى، كنت أنصت وأسمع حديثهما معًا، شدني غرابة الحديث وهي تقول: ماذا أفعل بالله عليكِ يا جارتي وصديقتي المقربة، ساعديني أرجوكِ، ليس لي أحدٌ غيرك، أخاف أن أخبرتُ أحد آخر، يضج الحي كله بما يحدث مع أبنتي، أتفهمين ما أقصده؟

قالت لها أمي: لكي أفهمك يجب أن تخبريني، شغلتي بالي عليكِ يا عزيزتي، أخبريني بسرعة ما الذي يحدث معكِ ومع ابنتكِ سلمى ، شغلتي بالي. ؟؟

ردت عليها: بنفسٍ مقطوع وهي تلهث، من مدة ليست بقصيرة أنتاب سلمى حالة غريبة، كل ليلة أستيقظ على صراخها ويحدث ذلك معها، مرات عديدة ويزداد يوما بعد يوم ، بداية نومها أو منتصفه، أراها بفراشها تتقلب وهي ترتعد، آخذها لحضني أعطيها شربة ماء لتهدأ. عندما تطمئن أني بجانبها تعود للنوم من جديد. تلك الحالة توالى حدوثها كثيرًا، أسألها ماذا بكِ يا بنتي، وما الذي يرعبكِ، وماذا يحصل معكِ. ؟؟

تقول: أنها بمجرد أن تغفوا وتنام، تشعر أن أحدًا يحاول خنقها، تحاول الخلاص والفكاك منه بالحراك ولا تستطيع، يُصِّر ذلك الشخص على خنقها بيديه، يتكوم

فوق جسدها الضئيل والصغير، وهي تخبط برجليها لتخرج من فراشها وتهرب، ولا تستطيع الفكاك منه، ولا الحراك يساعدها على ذلك، تشعر أنها مقيدة، وضغطٌ كبير يرقد فوق جسدها الصغير، يكاد يزهق روحها، وهي تعاود المحاولة مرات دون فائدة، جسدها يصبح كتلة واحدة مكورة، تشعر بالاختناق وتعاود تلك اليد الضغط بقوة أكثر كلما حاولت الفكاك، وفي أكثر المرات يكون هذا الشخص هو أنا يا أم هيثم، ابنتي تراني أخنقها هذا ما يرعبني، تقاطعها أمي قائلة: أهدئي يا عزيزتي بالتأكيد أنه حلم أو كابوس، وهي صغيرة لا تعرف التمييز فيما تراه. استغربت مما أسمعه، خرجتُ من مخبأي مندفعة لأرى وأتأمل جارتنا أم محمود، أتمنى قتلها كيف تحاول خنق ابنتها في الليل وهي نائمة، كيف تفعل ذلك هذه الأم وتقتل ابنتها؟

لكنني تراجعتُ عن ذلك، عدتُ لصمتي ولمكاني، أتابع ما يحدث قبل أن تراني أمي وتطلب مني الخروج وأغلاق الباب خلفي، كما تفعل دائما عندما تزورها جاراتِها أو صديقاتِها، أصمت وأسمع وأتابع، هذا ما وصلني من زيارة جارتنا العزيزة لأمي، وأهم ما التقطته آذني من الحديث الذي دار بينهما أن أم سلمى تحاول قتل ابنتها، جعلني هذا أموتُ رعبًا، وخوفًا، أن تأتي أمي ذات ليلة وأنا نائمة لتقتلني وتحاول خنقني، كما تفعل جارتنا مع ابنتها، لكنني عرفت لاحقًا بعد متابعتي للأحاديث الكثيرة التي دارت بينهما لأكثر من زيارة، وما جد معهما من حلول، أثارني بعض الشيء كلام أمي عندما قالت لها: لا تخافي يا أم محمود إنها التابعة أو القرين وبهذه الحالة يجب عليك حَبسُها فهي تأتي للأولاد الصغار بصورة الأم أو الأب أو أحب الناس إليهم، وتأتي أيضًا للكبار على ما أظن. ونَصحتها أن تزور أحد المشايخ ليحبس لها هذه التابعة بزجاجة محكمة الإغلاق كي لا يخرج المارد مرة ثانية ويؤذيها بالمستقبل، بعد حبسك لها يا أم محمود، ستنام سلمى بأمان وسلام، دون خوف وينتهي هذا الكابوس إلى الأبد أو لمدة طويلة جدًا، سيأتي يوم تشكريني فيه يا صديقتي وجارتي العزيزة الغالية، ودعتها عائدة إلى منزلها مطمئنة هادئة.

كانت أم محمود بالنسبة لأمي الجارة الأقرب والأخت والصديقة المخلصة الوفية، كل واحدة منهما مكمن أسرار الأخرى، تحكي عن كل التفاصيل لحياتها، بسرائها وضراءها، لذلك أم محمود قصدت والدتي قبل أي إنسان آخر، لتحكي مشكلة ابنتها سلمى آخر العنقود، وأنا كنتُ أول العنقود على حد قول أمي.

ومرت الأيام بنا، ولم تعد جارتنا أم محمود تشكي لأمي خوفها على أبنتها التي شفيت تمامً، وعدتُ وسلمى نذهب إلى المدرسة معًا كما كنا، نلعب مع الأولاد كعادتنا، وذهب

الخوف الذي كان بداخلي عندما سمعتُ أن سلمى شفيت تمامًا من الكابوس الذي كان يزورها ليلاً، ولكن الخوف على ما يبدو انتقل إليَّ وترك أثره على نفسيتي بدون علمٌ مني، كان الخوف، كل الخوف أن تأتي أمي تزورني ليلاً لتخنقني، كما كانت تفعل أم سلمى بها، هذا كان جُلَّ خوفي القادم مع مرور الأيام.

بدأتُ بعدها أمرُ بتقلبات غريبة عني، التزمت الحذر الشديد، خاصة حين أخذ يزداد شعوري أن مرافقٌ لي بدأ يتبعني، ليس ليلاً فقط، بل بكل الأوقات التي يراني فيها وحدي، ومرافقي هذا، لا يتركني أبدًا، منذ ولادتي كان يلازمني كظلي ، هذا ما تبنيته مع مرور الأحداث، كنت أشعر به، ولا أعرف كيف أعبر عن وجوده بحياتي، هكذا بدأت أفسر هذا الأمر الغريب، تهتُ تمامً وأنا أكبر وتكبر معي تلك الأحاسيس مع أسئلة كثيرة، لماذا الآن بعد حادثة سلمى يحصل معي ذلك؟ لماذا تتراكم برأسي مجموعة من الأسئلة، حول الموضوع ذاته، يتوارد بخاطري بهذا الشكل المتواصل، كأن أحدً يقرأ أفكاري ويتبعني ويعرف كل ما يدور بداخلي. ؟؟

ما الذي يجعل الإنسان منا قادرًا على قراءة أفكار الآخرين، بسلاسة عجيبة يعرف بما يدور بفكره، كيف ينتابني هذا الإحساس الغريب أنا الأخرى، أفهم أمي وأخوتي وأبي وصديقاتي، كلهم أفهم تحركات عقولهم تجاه أية مواقف، وأعرف ما يدور بعقلهم تجاه بعض المواقف والأمور، أعرف ردود أفعالهم أكثر الأحيان من خلال تصرفاتهم . ؟؟

ما الذي يجعلني أقول إذًا: أنني كلما ذهبتُ إلى مكان ما، ينتابني شعور غريب بأنني أعرف هذا المكان وزرته أو رأيته من قبل، إنه ليس إحساس فقط بل حقيقة أشعرها، أشعر كأني مررتُ فعلاً بذاك المكان وسكنته بعضًا من الوقت، أو الزمن عاد بي متقهقرًا إلى الوراء، قبل أن أولد وآتي إلى هذه الحياة، أهو التقمص الذي يتحدثون عنه.؟ ماذا هو الذي يحدث معي، وتحت أي مسمى من الأسماء والعناوين أضعه، ولكن لماذا يحصل كعي ذلك كيف؟

ما هذا العقل العجيب الغريب الذي يسكن تجويف هذا الرأس الذي أحمله بين كتفي. ؟؟تبين لي فيما بعد، مع كثرة مرور تلك الأحداث الغريبة وتكرارها المتواصل، أن ما أعيشه بغرابة ذلك الإحساس، هو أمر عادي، وليس بغريب لأنه يحصل مع الجميع، قد يكون هذا الشعور غريب بالبداية، ولكنه مع الأيام يأخذُ وضعه الصحيح، ويتمركز تمامًا ليسيطر على كل جديد يستقبله العقل الذي يرتبط معي وأحمله برأسي وبين كتفي، يأخذ شكله الطبيعي ككل الأحداث التي تمر معنا بشكل

عام، ليكون له مكان خاص به يترسخ بالذاكرة يسكن بغرف العقل الباطن ويأتي حسب تراود الخواطر لهذا العقل.

أُعَزي نفسي أحيانًا بما توصلتُ إليه، بأنه شيء خارق لصفة أتميز بها، أم أنها حقيقة هي تلك التفاصيل التي تحدث لنا بالشكل العام، هو شعور عام ذلك الذي ينتابنا عند دخولنا لأماكن معينه، فنشعر على الفور أنه قد سبق لنا رؤية ذلك المكان والتجول فيه ومحفورة بذاكرتنا تفاصيله الدقيقة، والغريب أنني بدأتُ أقتنع بأن هذا الشعور يحدث ل ٩٥ ٪ من الناس على الأقل، ولو لمرة واحدة... علماء النفس يسمونه Déjà Vu أورأيته من قبل وعشته من قبل، يؤكدون أن هذا الشعور لا علاقة له على الإطلاق مع الظواهر الخارقة للطبيعة أو الميتافيزيقية ((Paranormalفهو مرتبط إذًا بالطريقة التي تعالج فيها دماغنا المعلومات التي تصله بين فترة وأخرى، وعرفتُ أكثر، أن هذا الراس الذي نحمله، هو الآخريحمل هذه الكتلة الرائعة المسماة الدماغ وهي الأهم لحياتنا، عرفتُ أنه لا يعمل كآلة، بالمفهوم العام والمتعارف عليه نهائيًا لأنه قبل الوصول الى مكان ما، أو قبل رؤية حدث ما، يقوم بتوقع ما أمكن أن نراه: قد يقوم برسم متوقع للمكان الذي سندخله أو يقوم برسم مسار أحداث لما يمكن أن يحدث في مشهد سنراه، فيوصلنا الى نتيجته قبل أن نرى فعلياً ما سنرى وما يحصل لنا عند الرؤية.

كل هذه المعلومات التي وصلت لها جعلتني أشعر أني على علاقة ما بكل تلك الأحداث المتراكمة فوق بعضها لوقت زمني قصير إذا ما قستُ ذلك بعمري الزمني، أو أنني خُلقتُ قبل أن أخلق بالحياة، لا أعرف كيف أفسر ما أعيش به من تقلبات، وبمقاييس مختلفة، إنه ليس التقمص الذي يحكون عنه ببعض العقائد لبعض الديانات، أسمع عنه بعض الأحيان. برغم ذلك بديتُ كأني لا أعرف شيء عنها ولا تعنيني أحيانًا كثرة تلك الأمور، هي التي تفرض نفسها ووجودها على حياتي بكل تفاصيلها تجعلني أتوقف قليلاً .... أشعر كأني على عتبة سلم، طويلة درجاته، قاسية ملامح أبعاده لا نهاية لها للوصول إلى نتيجة، معلّق بين السماء والأرض بدون ثوابت لبدايات كثيرة ولا نهايات لها، بين الحقيقة والخيال تسكن، بين ضبابية الروح والجسد تتماهى العلاقة بينهما، أقف متأملة فزعة، أحمل معي ما خزنته من أسئلتي المرعبة ولا جواب لها، يتعبني فراغها حول الشحيح من معرفتي لأجوبتها، أبحث عنها في أسرار تلك النفوس الصامتة، بين ما يخبئه الأخرون عني، لا أجد أي مبرر لذلك الصمت الملتف بوشاح الهمس حولي، تتناقلها نفوس مريضة من تلافيف الظن،

تقتلني إحداثياتها المتعددة التغير لأماكن تربيعها، أهو قرين يتبعني ... ماذا يفعل بي هذا المجوسي اللعين، الخارج عن نطاق الأديان كلها يسكن بي. ؟؟ أم تراها عين ترصدني وبالسحر تستقطبني. ؟؟

أم هي توارد لخواطر بعض من الأشخاص تلاحقني، أم كلاهما معًا. ؟؟

أو كما قالت أمي وقتها لسلمى، وصدق قولها وتوصيفها للعلة بأنها قرين، وها نحن كبرنا معًا أنا وسلمى، وسارت بنا الحياة بمسارها الطبيعي بالنسبة لسلمى على الأقل، ولكن بالنسبة لي كانت الوقائع التي عشتها تختلف، لذلك أخذت كل واحدة منَّا تمشي بطريق عكس الاتجاه ومغاير تمامًا عن الأخرى، وبقية تلك الذكرى تحفر أخاديد في تلافيف عقلي حتى هذه الأيام، تربطني بأمور لا تفسير لها، مهما اختلفت نوعية التساؤلات التي لا تنتهي، ضمنً يزال مرافقي بإصرار يتبعني، مع مرور السنين وأنا أكبر، كنتُ أكتم ذلك، أخاف تهديده، وأخاف أمي أن علمت للمرة الثانية بذلك، عندما ذكرتُ لها بعضً مما يحدث بتلك الفترة، قالت لي وقتها وكأنها تسايرني: لا تخافي يا ابنتي إنه قرينك، يتبعك في المنام ويرافقك في اليقظة. قلت لها: لا يا أمي ... لا يا حبيبتي ما يحدث لي ليس قرين، لأنه لا يتبعني في المنام كما تقولين لي وتتكهنين دائمًا كعادتك بمعرفة كل شيء يحصل لنا، لعلمكِ يا أمي أنني أنام كل ليلة ملئ جفني. قاطعتني قائلة: وكأنها لم تسمع ما قلته لها أو أن ما أقوله لا تأخذه بعين الاعتبار ولا تهتم له أصلًا. لذلك قالت لي: سأذهب لأحد المشايخ ولأقرب جامع بالحي، أسأل الشيخ المتواجد فيه والمسؤول عنه وأحبسها لك بزجاجة وأحكم إغلاقها بشدة، كي لا يخرج منه ذلك المارد الخاص بك مرة ثانية، اطمئني يا مريم لا تخافي يا حبيبتي.

شَكتْ أمي في البداية بأني أُمثل عليها، من غيرتي أتخيل أنني أعيش نفس الحالة التي مرت بها سلمى منذ مدة مضت، لأُلفت اهتمام أبي واهتمامها الكبير الذي افتقدته برأيها منذ مدة، كأنها تلمح للماضي، تتابع وهي تقول: بأنها ستحلُ لي عقدتي كما تظن، ستذهب للشيخ، ولم ترتاح إلاَّ بعد أن ذهبت لأحد المشايخ وأخذتني معها، لأرى بعيني وأسمع بأذني، وأيضًا قطعت من ثوبٌ لي قديم، قطعة قماش صغيرة وأشياء أخرى مما طلبها الشيخ، وفعلت نفس الشيء الذي فعلته مع سلمى، ولأن شيء لم يتغير معي، لذلك لم أعد أحكي لأمي أي شيء، لأنها لن تفهم ما يحدث معي اطلاقًا، ولأني أعلم ما ستفعله بي، لو أنني حكيتُ لها أدق التفاصيل، لذلك رفضتُ الذهاب معها في المرة الثانية لذلك الشيخ أو غيره، رغم اصرارها، وتوقفت عن الحديث معها تمامًا، وخبأتُ سري وعشتُ وحدي معه، وهو يتابعني بذلك السحر الأبيض أم الأسود الغريب، لم

أعد أعرف، أصبحتُ أراه بوضوح، يشاركني يومياتي، وأدق تفاصيل حياتي وتنقلاتي، برغم أنه غير مرئي بالنسبة لي وللآخرين، مهما فسرتُ وشرحتْ، لن يقتنع أحد بخرافات، وأوهام ينسجها خيالي، أعرف أن هذا هو سيكون ردهم عليَّ. تعودت مع مرور الأيام على كيفية التعايش مع تلك الخرافات، والأوهام المليئة بالإثارة لما يرسمه خيالي. رغم التناقض لِمَا كنت اسمعه من أمي، وما يمكن استقطابه من هنا وهناك، وهي مصرة على تأكيدها لي دائمًا على أنه تابعة، وأحاول أن أقتنع معها لأعيش حياة هادئة دون قلق وخوف، ولكن دون جدوى. كبرتُ وبدأ التغير تدريجيًا يظهر ويبعد عني تلك الفكرة، دون أن أستسلم لها كليًا، بعد أن عودتُ نفسي على وجود ذلك القرين لقربه الشديد مني، ومرافقته المستمرة لي، أراه وأُحسُ به حد الالتصاق، لدرجة إني ذات مرة تمكنتُ من معرفته، وفهمتُ كيفية رصده ومتابعته لي، وتملكه لأفكاري التي كان يقرأها عني، ومن خلالها بدأت سيطرته واضحة على كل تحركاتي، يرافقني عند ذهابي إلى مدرستي وينتظرني ليعود معي إلى البيت، دون أن ينبث ببنت شفه، ألمحه بإحساسي وأراه بعين البصيرة، ليس بعين البصر للرؤية الواضحة، في البداية أحببتُ هذا الشيء الذي ميزني عن البقية، برغم أني لا أرى هذا القرين أبداً، بل أحسُ به فقط، ومن كثرت وقوة ذلك الإحساس، بدأ الوهم يتسرب لداخل عقلي الخامل عن الحركة يقبع بجوانب تجاويف عقلي، كإسفنجة أخذ يمتص، كل ما يمر بيومياتي ولا يقبله عقلي الواعي، ينسج مع خيالي الحسي صورة ليست واضحة، يتهيأ لي أنني أراه وأشعر بأنفاسه الساخنة خلفي تتبعني لدرجة رؤيتي الوهمية له، أو قوة تخيلي له، كأنه روح بين الأرواح تسرح بفضاء غير محدود، قوة هذا الإيحاء أخذ يسيطر على عقلي بالكامل الظاهر والباطن تم اندماجهما معًا للتآمر عليَّ، لدرجة أني كثيرًا ما أحدثُ نفسي وأنا في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت مع قراني، أفكر به، أتساءل: أتراه ورائي يراقبني .... ولا زال يتبعني. ؟؟ رجل هو أم امرأة. ؟؟

عجوز هو أم شاب ... أعود لأجزم لا .... لا يمكن أن يكون امرأة ... ولا يمكن أن يكون عجوز. !!

قد يكون في منتصف العمر بين هذا وذاك، الشخص الذي بقوته وثباته، لا يمكن أن يكون امرأة بالتأكيد هو رجل، إحساسي به رجلُ، حركته وصوته أيضًا يقول إن هذا الصوت لرجل وليس لامرأة، أحيانًا ألاحظ أن الأمور تختلط عليَّ، ولكن الشيء الوحيد الثابت والذي كنت متأكدة منه، أنه موجود حقيقة يلازمني، قد يكون روح بدون جسد تسيطر عليَّ بالإيحاء، وليس بالوهم أو الخيال، لذلك جعلني اقتناعي

بوجوده أن أؤمن به، من خلال ما يحصل معي، وأعطاني ذلك دافع قوي لأن أبحث ببعض الكتب عن تفسير لتلك الظاهرة، أو مجموعة هذه الظواهر الكثيرة التي أسمع عنها وأصبحتُ أعيشها.

بدأتُ بعد تفكير طويل أحلل، على أنه نوع من التخاطر، أو ما يسمى الإيحاء، كان تفكيري كله وقتها متجها نحو فكرة التخاطر ولا تشغلني أي فكرة عن غيرها هذا على ضوء ما كنت أسمعه عبر شاشات التلفزة لبعض القنوات الفضائية المخصصة لهذا العلم أو الشعوذة أو قراءة الطالع، أو أي مسمى آخر لا يهم، أصبحتُ بين هذا وذاك أضيع، تأخذني الأفكار الكثيرة، خاصة عند دخولي النت بعض الأحيان لأجري بحثً عن هذه الأمور، لاحظتُ أنني لا أستوعب ما أقرأ، ولا أعرف كيف أفكر، هناك تشويش يسيطر على كل شيء، ربما لصغر سني، رغم إصراري الكبير وأنا أجاهد لأصل إلى قرار بعد أن فشلت كل محاولاتي وأنا أتابع البحث عن حقيقة ما يحدث بعيدًا عن التخمين، أخذ مني وقتٌ طويل، حتى جاء ذلك اليوم تغير فيه استيعابي لكل هذه الأمور، ببحثي بين أنواع كثيرة من المصادر المختلفة للكتب التي أقرأها على حسب تمكني في الحصول عليها، أحيانًا أذهب إلى المكتبة العامة فلم أجد إلاَّ القليل مما أريد، فأتابع البحث عن طريق النت مرات وأنا صامتة لا أستطيع التفوه بكلمة لأيٍ كان، مهما كان قربه مني، بعدتُ عن أهلي وعشتُ حياتي بشبه عزلة عنهم يتبعني ذلك المرافق لي دائمًا، وعرفتُ أننا كلما تعمقنا بشيء نخاف منه، يأتي إلينا ويتشبث بنا حتى نقبله كحقيقة، نتركه أو نسمح له لأن يعيش معنا، وأن أحدا لن يستطيع مهما كانت قناعته برجاحة عقلي أن يصدقني كما ذكرت لكم بالبداية، ولكن مع مرور الزمن بأحداثه الكثيرة والسريعة التغير، أصبح هذا الشيء يستهويني ويرضي أفكاري العقلية التي ينسجها خيالي، لأعيش مع شبحي أو قريني أو مرافقي، كلها تسميات مهما اختلفتْ فهي اسم لمعنى واحد، بجرأة يسحبني من عالمي الواقعي المحسوس، إلى عالم خفي غير مرئي، لأكون فيه متنازعة الأفكار تائهة الحضور، ولكن مع الوقت أحببتُ ذلك التيه الذي وصلتُ إليه، ولم يعد بمقدوري السيطرة على نفسي وعلى هذا الإحساس الغريب والمدهش والممتع بنفس الوقت برغم خوفي الشديد منه.

عرفتُ فيما بعد أن تلك التناقضات غريبة كنتُ أقبلها حينًا وأرفضها أحيان، لا خيار لي بذلك، معلقة أصبحتُ بين فضاء الفكر أتثاءب مثقلة بالأوهام، أعطيتُ لمساحة العقل فرصة أكبر من اللازم لتبحر بين أشرعة الأرواح المتنقلة في الفضاء اللامتناهية أبعاده ، وسمحتْ لها أن تستقيل وتنام هادئة بعضً من أوقات الزمن،

ليتحرك عقلي الباطن بحرية وهو يأخذ ما خزنه وشحنه من شحنات وهمية، يظهرها على السطح ونتوحد معًا، عدتُ معه لأحلل وأستنتج وأختبر المزيد، تحت مسمى وحيد أخرجته من صفحات عقلي الباطن الذي أصبح يعلو سطح العقل الواعي كله، أخترتُ أن أكونه وأتابعه، وأسميته الرجل الهلامي، وقَرنتهُ مع اسم المجوسي، الاسم الذي استهواني معناه، لأنسبه إليه، ولأنه ينسجم مع انصياعي له بدون أسباب، ومع تحركاته الغريبة التي يظهر بها ويختفي فجأة، عندما يشعر بالخطر يدنو منه، يحدد وقت ظهوره الآمن، ليبدأ قبل الواحدة بقليل ظهرًا، أو الواحدة بعد منتصف الليل مساءً، بنفس التوقيت، تبدأ مرافقته لي، وتبدأ مراقبتي له، بدقة شديدة أصبحتُ أتابعه لأكتشف المزيد عنه، وأنا أعيش حياتي بشكلها الطبيعي بعد جهد وتعب مضني وصلتُ لهذا القرار، وبدأتُ ألاحظ بشغف غريب، ما يدور من أحداث، يستبق حدوثها الواقع المحدد بالوقت المحدد لها. ولكثرة تعمقي بما يحدث معي من أشياء غريبة، أخذني ذلك إلى أن أبتدع أو أختلق أسماء ومسميات لتلك الأشخاص الوهمية والتي لا أعرف إن كانت وهمية أم حقيقية من كثرة تعايشي معها، كما كنتُ أفعل مع ألعابي، وعرفتُ أن أحدد انجذابي لأسم المجوسي ، بعد أن عرفتُ المعنى الحقيقي له، وانصياعي وتتبعي التام لهذا المجوسي المرشد لي، أسميته بذلك الاسم لغرابة وجوده، وعدم فهمي له، وعدم معرفتي لجنسه وجنسيته أو التكهن بها، أو شيء عن ديانته التي ينتمي إليها، يسحبني معه بتلقائية سحر مفروضة، يجب عليَّ تقبل كل أوامره مهما كانت، ألا يكفيني ما صدر عنه من أفعال غريبة لم أفهمها، حتى لو كان تجديفاً بفراغ، حول حقيقة وجوده، جاءني تفسير لمعنى الاسم على حين غفلة واجتهاد مني، أنه الخارج عن الدين أو من لا دين يعتنقه، أو كُفراً خارج عن حدود الطبيعة للأديان المتعارف عليها. (إنه إبليس اللعين) هذا هو اسمه، المجوسي إبليس اللعين. أخيرًا وصلتُ لنتيجة أقنعتني نوعًا ما . بدأت أربط طريقة سيره معي، وجذبه لي، إنها مشابه تمامًا لقصة سيدنا موسى عليه السلام ورحلته مع سيدنا الخضر الشهيرة في سورة الكهف حين ((قال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أُحدث لك منه ذكرًا)). برغم أنه شتان ما بين هذا وذاك، بين سيدنا موسى عليه السلام وسيدنا الخضر وبين هذا اللعين ، أو الملعون. لذلك كان من الغريب عليَّ أن أطيع أوامره وبصمت، أسلك معه ذلك الدرب المطلوب، لمسار تلك الرحلة الطويلة بدون شرح أو تفاصيل، لا بداية ولا نهاية واضحة لها، فقط يأتي ذلك المجوسي يأخذني بسيطرته التامة والصامتة، يتركني تائهة لا أعرف كيف ستكون نهايتي، وأنا أمشي

بهذا المسار لبعض من الأيام، ليعود بي إلى حيث التقاني، وأنا منصاعة له وهو يتبعني.

من هنا، من هذه النقطة بدأ اهتمامي بالمرحلة القادمة لعمري الصغير يكبر معي، يأخذني باتجاه آخر نحو علم الميتافيزيقيا، وهو يرشدني عن طريق البحث عن الحقيقة ،يستهدف الوجود الحقيقي، الذي لا يُظهره الواقع المحسوس، وإنما يوجد عالم آخر، وراء هذا الواقع الذي نعيشه بالخبرة الحسية، ونستشعر به، يُعتبر فارقًا جوهريًا بين طبيعة خبرتنا الحسية وطبيعة الميتافيزيقا، فبينما تنحصر الأولى في نطاق موضوعات قائمة بالفعل وخاضعة للإدراك الحسي والمادي، وجدتُ قيما بعد أن موضوعات الميتافيزيقا لا تشترط وجود مادة، وإنما تشترط وجود عقل، يدرك ما وراء الطبيعة، الغير مرئية أو المنظورة، وبجميع المسائل والوسائل التي تتعلق بهذا العلم، توصلت للمعرفة التي أنشدها، ومن كل هذا تعلمتُ وعرفتُ أن العلم شيء، والمعرفة شيء آخر، العلم نأخذه من المناهج الدراسية والأكاديمية، أما المعرفة، فنكتسبها من المحيط حولنا، مما يأتي إلينا من إعلام . وإعلان . وتلفزة . وقراءات واستقصائيات، حول مواضيع تشدنا المعرفة والفضول إليها، كل ذلك وصلتُ إليه وأنا أتابع بحثي عن كل ما يخص الفضول الذي سكن روحي قبل أن يسكن عقلي وفكري، وأنه لا يمكنني تصنيف هذه الأمور ضمن الإطار الطبيعي الفيزيائي الواقعي والمادي المحسوس، وغير الملموس من جهة أخرى، لكل ما نتناوله من الظواهر الروحية والنفسية لعقلنا بفرعيه الباطني والواعي، ولأجسادنا الدائمة الحركة بذبذباتها المتحركة، بين الأرواح التي تهيم بالفضاء ترصدنا وتقصدنا معًا للوصول نحو الهدف.

كنت أجد متعة غريبة وأنا أربط بين هذه القراءة التي توصلتُ لها، وبين ما كنت أتخيله وأنا طفلة، أصبحت أعشق تلك الهلوسات التي تمس عقلي، أعيشها وأنا أكبر معها مرحلة مرحلة، أكثرها غرابة كان بالنسبة لي، اعتقادي أن ألعابي تملكُ روح سارحة وجسد جامد أنا أحركه ...

روح تتحرك مثلنا تمامًا، تُحرك كافة الألعاب بسحر ما ربما، كما نحن تمامًا، هي ليست جماد، دليل ذلك أني أكلمها وأسمعها وأشعر بحضورها الجسدي والروحي معًا، وأنها تحتاج لأشياء كثيرة كما أحتاج أنا بيومياتي، وأذكر أن أمي كانت تأتي راكضة حيث أكون، عند سماعها صوتي وأنا أتحدث مع ألعابي وأسامرها، تسألني وهي متقطعة الأنفاس خوفً: مع من كنتِ تتكلمين يا مريم، أنظر إليها بصمت ودهشة أهز لها رأسي مستغربة وأنا أقول لا أحد، وتأخذني حيث إلى حيثُ تكون، بمكان ما بالمنزل، أو بالمطبخ تحضر بعض الطعام تجلسني أمامها تراقبني، فلتململ مرة وأثنين

وثلاثة وهي لا تعيرني انتباهها فأقول لها: أريد الذهاب إلى غرفتي لألعب مع ألعابي، مع الدب الصغير ذا اللون الأورانجِ المشرق كلون الشمس، تسمعني فقط ولا ترد، فأنام وأنا جالسة، تضطر أمي عند ذلك لتترك كل شيء من يدها، وتأخذني إلى فراشي، تضعني فيه وتغطيني جيدًا، كي لا أصاب بنزلة برد أو مرض، وتغلق الباب خلفها وتخرج مطمئنة، ولكني من شقاوتي، بمجرد خروجها وإغلاق الباب وراءها، أتسلل من فراشي لأمارس عملي الخاص والممتع مع ألعابي .هكذا كنت أصل لِمَا أريد بحيلة بسيطة جدًا ينسجها خيالي، أعرف كيف أجد طريقة أخرى لأخرج منها خارج دائرة وجود أمي معي، وأعود إلى غرفتي، أحاور ألعابي كأنهم أصدقائي الأطفال الحقيقيين والمميزين بالنسبة لي، أعود إليهم بشوق لنتحدث معًا، أحكي لهم أسراري التي لا أتجرأ أن أحكيها لأمي ولا حتى لأخوتي .

عرفتُ فيما بعد أن الأطفال بشكل عام يمرون بهذه المرحلة ويعتبرون ألعابهم أصدقائهم الحقيقين المقربين يتكلمون معهم، يسامرونهم بانسجام تام ومتعة في التسلط، كنتُ فتاة ذكية وشقية كما تقول جدتي. كبُرت هذه العادة معي وأنا أكبر، ولم أتركها ابدًا، على العكس تمامًا، أخذتها معي لأيامي القادمة أصبحتُ أتخيل لعبتي تجالسني وتسامرني وأحكي لها ما يحدث معي، يغامر ني شعور من المتعة اللذيذة مغلفة بالقوة والتحدي والسيطرة التي كنت أحب ممارستها ولا أجد مجالاً لذلك، كنت أشعر أنها الوحيدة التي تخضع لسيطرتي وتوجيهاتي، كما تفعل أمي معي في تربيتي وأشقائي.

كنت أشعر بذلك الشعور من التملك على شخصيات لا حول لها ولا قوة أنا أحركها، حين أسيطر على ألعابي وآخذ دور المربي لهم، لم يقتصر الوضع على ألعابي فقط، بل تعدى تلك المرحلة حين كبرت، بدأتُ أجد دائمًا أشخاص وهميون ينسجهم خيالي، أتحاور وإياهم، أذهب معهم لأماكن عديدة مختلفة، دون أن تعرف أمي، أهمُ شيء كان عندي، هو ألاَّ تعرف أمي فتمنعني، لذلك أصبح الصمت من الأصدقاء الأكثر قربًا لي، يلازمني كرفيقي الأوحد، خاصة عندما أكون مجتمعة مع أبي وأمي وأخوتي، لا أشاركهم الحديث أبدًا، سوى بعض من الردود، إن وجه إليَّ سؤال ما، تستغرب أمي بعض الأحيان من تصرفي وصمتي، وما تستغربه أكثر كيف أُثرثر ولا تنقطع ثرثرتي عندما أكون وحدي مع ألعابي، لم تقف عندها لتعاقبني، لأنها كانت تعلم أن تلك العادة موجودة بمرحلة الطفولة تلازم الأطفال بشكل عام، لكنها لاحظت أن تلك العادة أخذت تكبر معي وبقيتْ تلازمني ولم أتركها، حاولت معي جاهدة، تساعدني

على تركها لم تفلح، ولم تأتي بأي نتيجة، كل محاولاتها باءت بالفشل، كل وسيلة استخدمتها لأتخلص من تلك العادة لم تنجح معي، والسبب هو ما حدث بالماضي وترسخ بعقلي الباطن، بالنسبة للقرين أو التابعة التي مرت معي بطفولتي، لم يعد مهم السبب بالنسبة لي، بعد أن وصلت لِمَا وصلت إليه.

لطفولتي دائمًا ذاكرتها الخصوصية، التي لا تُنسى أبدًا، ولا يمحيها الزمن رغم تقلباته الكثيرة، خاصة عندما يكون خوفي بأشد حالاته، حين تتقمصني بعض الأدوار التي يعيشها بعض الناس حولي، أحملها معي وأنا أكبر، أغربها كان قصة أمينة، تلك الصبية الجميلة التي تسكن بالحي القريب من الحي الذي نسكنه، أخذت تفكيري كله إليها، برغم أني كنتُ أتسلى مع مجموعة من الأولاد (صبيان وبنات) نحوم حولها كلما رأيناها تدخل الحارة، عائدة إلى منزلها، نهتف جميعنا بصوت واحد جاءت المجنونة، الى أن جُنت صفية فعلا بالنهاية: كنت أخاف أن يحدث معي ما حدث معها، وخوفي الأكبر كان، أن ينتقل لي كل ما يحدث للآخرين من أمور غريبة، ولكن مع مرور الأيام عودني ذلك النضوج والوعي الذي تميزتُ به بفترة معينة، واستغربت كيف زارني وجاءني فجأة ذلك النضوج، وعلى ما يبدولي كان السبب لتغيرتلك العادات، والسبب كان تراكم تلك الأحداث بذاكرتي، وهي تستقبل الأحدث تباعًا مع توالي العمر من وقت لآخر، مما ولد عندي ذلك التغير نوعً من الحذر، ألاَّ أدخُل مع أحد بأي نقاش، خاصة عن تلك الظواهر الغريبة التي أسمع عنها، ويستسيغها عقلي وأعيشها بين فترات متفاوتة، مثل الجن والأشباح مهما كان تنوعها، لأن إيماني بها يختلف عن إيمان الآخرين وقناعاتهم، أو ربما رفضي لآرائهم قد يثير بلبلة ومجال للنقاش العقيم والحاد وأنا بغنى عنه، فافتح لهم مجال لأن يقولوا عني مجنونة، كما حدث مع أمينة، كان هذا التفكير يرعبني حدوثه لي، وأيضًا لأن تلك الأمور ليست من الظواهر الغريبة لتلك الحكايات، التي كنتُ أعيشها وأسمعها حولي بكثرة، عرفتُ لا حقًا أن الأخرين يخالفوني حول هذه النقطة، وأيضًا ظهورها لي خاصة، بين حين وآخر يختلف بوقعه الذي كان يرعبني، ويجعلني لا أؤمن بكل هذه الاختلاطات من الغرائب، لكني كنتُ احسها مجرد إحساس، وليس واقع ملموس أو يقين، يقيني كان أن التخاطر هو الحالة الوحيدة الأقرب لتلك المسميات، أُعلل ذلك بأنها نتيجة اضطرابات لمجموعة أفكار غير ثابته بحياتي، ولأني لستُ مقتنعة بها وبقوتها الخارقة التي سمعتُ وقرأتُ عنها كثيرًا، أخذت ترسل شبكاتها داخل جسدي، وتحرك تلك الخلايا النائمة تحت وسادة الجهل المفرط لتلك الأمور، أخذتْ تسيطر عليَّ هي الأخرى بمفارقات عجيبة،

لتناقضات بين الرفض والقبول، تخترقني بشكل غير عادي، تفزعني عندما أقرأ عنها وهي تتراقص أمامي وتتهيأ لي، لدرجة إني كنتُ أموتُ خوفًا، ويرتعش لها جسدي، أحاول الهروب من المكان الذي أكون به، أحاول أن أخذ نفسً عميقًا ولا أستطيع، وأشعر بالاختناق يزداد، وبأن الموت يقترب مني، ولن يبقيني على قيد الحياة، لكي أعود وأتنفس براحة، أختنق ولا أستطيع أن آخُذ بعضًا من الشهيق والزفير، قبل أن تعاجلني المنية، وأفقد إحساسي بالوجود نهائيًا، ثم أعود لأشعر بذات الشعور، وهو يتكرر أمامي ويرسم خيوط لأشخاص تتراء لي، وأن أحدهم يهزأ بي يلاعبني بتلك الضحكة الهستيرية المستفزة، كأنه ينبح بأصوات مشمئزة مثيرة للقرف ككلب أجرب يلهث وراء شبحٍ هارب، أو مواءٍ لقطة بشعة، أو صوتٌ لعواء ذئب ضال يبحث عن فريسته.

أما تفكيري بالنسبة للجان بكل الأشكال التي يمكن أن يظهر بها ليتواجد معنا، يشاركنا بعض من المواقف الغريبة بحياتنا، وأحيانا يدخل أجسادنا ويسكن فيها، يتصرف نيابة عنا، ويدمر حياتنا. أيضًا عرفتُ، أن له أماكنه الخاصة، التي يعيش فيها ويختارها، ليسكنها داخل بيوتنا، بالشوارع والازقة من الأحياء الشعبية، كل هذه الأمور التي تخصه كشيء مؤكد لجوده، أصبحت ترعبني، أخاف العبث بها، والحديث عنها، والغوص فيها، لا أعرف لماذا هذا الموضوع عن الجن بالذات يرعبني، مجرد التفكير به يجعلني أرتعش ... وأرتعد من الخوفً. الخوف من كل شيء يخصه، والسبب، أنه ليس بمقدوري وصف أو تسميت كل ما يحدث معي بتوصيفه الصحيح، أشعر بضياع عن ذاتي حين أتذكر دائمًا حادثة بسيطة هي ولكنها كانت كبيرة التأثير عليَّ، حصلت مع صديقة أمي المقربة، جاءت تزورها ذات يوم بدون موعد سابق، استهواني الحديث الذي جرى بينهما كالعادة، شدتني بكلامها وهي تقول: إنها في الليلة الماضي وهي تأخذ حمامها في المساء كعادتها، سمعت صوت يخاطبها بهمس هيفا ... هيفا ... التفتت هيفا وراءها مرعوبة، وجالت بنظرها، كل الجهات المحيطة حولها، بكل الزوايا للاتجاهات الأربعة المختلفة لحمامها، لم تجد ما يثبت أن أحدًا دخل الحمام، ولم تسمع أي همس أو صوتًا لأحد، من ثم عادت واصغت بأُذنيها مرة أخرى، أعطت سمعها لِمَا وراء صوت الماء بآذان صاغية تسمع حفيف كل متحرك وساكن من الخوف ....للمرة الثانية، لم تسمع سوى صوت الماء يجري أمامها، وهي تحت الدوش، تابعتْ حمامها وأخذت تسكب الماء بغزارة، لتغسل جسدها من الشامبو والصابون، وعادت لتسمع ذلك الصوت من جديد يهمس لها بالمزيد، ويدٌ باردة هذه

المرة، تمتد بهدوء ودون أية حركة تلمس كتفها بخفة غريبة ولها ملمس غريب، تربتْ على جسدها، لها جلد مختلف عن جلد الإنسان، عرفت ذلك من سخونة ملمس جلد تلك اليد التي لامست كتفها، إنه جسد برودته عليها مختلفة، تلك اللمسة مختلفة عن لمسة أي فرد من أفراد عائلتها، زوجها وأولادها، مختلفة أيضًا عن لمسة أي أُنسي آخر، خافت أن تلتفت هذه المرة وتُصدم بما ستراه، عند ذلك خرجت منها صرخة بصوت رجَّ له المنزل، فتحت الباب وخرجت كما خلقها الله من الحمام، لتعي على شيء، والصابون مع الماء لايزال يسيل على جسدها، خرجت بدون أن تضع شيء تلف به جسدها العاري وهي تصرخ باسم زوجها أديب ... أديب، الحقني، صرخات متقطعة كانت صرخاتها، من ضغط الخوف والرعب ووقعت أرضًا مغشي عليها، غابت عن الوعي بعض الوقت، وعندما صَحتْ من غيبوبتها، وجدت نفسها ممددة على سريرها، وزوجها بجوارها يسألها ماذا أصابك؟ ماذا حصل لكِ. ماذا يحدث معكِ بحق السماء أخبريني بسرعة. ؟؟لا تجعليني أفقد أعصابي أكثرمن ذلك، وصبري قارب أن ينفُد.! أرعبتني يا امرأة أخبريني بسرعة ماذا حصل لكِ.؟؟ فقصت عليه ما حدث معها، قال لها: مواسيًا، ليخفف من خوفها ولتعود الحياة إلى شراييها التي تجمدت بعروقها، وتابع يقول: ربما تكوني واهمة، ولا يمكن لأحد أن يدخل المنزل، وأيضًا لا يمكن أن يحدث ما ذكرته معنا، وخاصة بهذا العصرفالإنسان هو الشيطان ذاته. من ليلتها حرمت هيفا أن تأخذ حمامها ليلاً..!!

ولكن المُلفت بالموضوع، هو موقف أمي الذي أصبح يرعبني، وهي تأخذ دور الأستاذة العالمة بكل هذه التفاصيل، من الأمور الخارقة والخارجة عن الطبيعة. أضحك منها مستغربة، وأنا أراقبها من بعيد دون أن تراني، وهي تتابع وتقول لهفا بثقة: أن ما حدث معها لمس من الجن، لأنهم يخرجون بالليل في الأماكن الرطبة كالحمامات ومجاريرالمياه وأنها ربما لم تسمي بالرحمن عند دخولها الحمام لذلك خرج أحدهم عليها، لم يستهويني كلام أمي أبدًا، لأنني لا أؤمن به أولًا. يخيفني مجرد التفكيربه ثانيًا. كل هذه الحوادث تركت تأثيرها السلبي على عقلي الواعي، وعقلي الباطن كان يمتصها على دفعات متكررة ويختزنها، وعند حاجتي لها يستأجرها لي على دفعات عندما يحتاجها عقلي الواعي، وبمجرد ظهور تلك الذكريات، يأخذني بالحال التفكير إليها، أبدأ في استعادة لحظاتها ولا أستطيع التعمق بموضوعها، أحسه وأعيشه بواقعتيه بعض الأحيان، من خلال ما يتردد عنها بين الناس عامة، ولا أرى لها حضورِجلي بين ما يحدث معي وبينها، لأنها لا تنتمي إلى فصيلة الجن، أولها أية علاقة به، أوبملحقاته

التي أسمع عنها. كثيرًا ما كان ينتابني، حالة دائمة، أعيشها بين التخاطر للأفكار بيني وبين شخص ما، أحدهم يكلمني يسمعني وأسمعه، قرين هو لا أعرف.!

كل ما أعرفه أن هناك توارد خواطر بيننا، هي التي تصلني به، وهذا التوارد هو اتصال بذبذبات كهرطيسية هي، أم كهربية، أم غير ذلك من التسميات الميتافيزيقية، لا أعرف حتى من أين أتاني هذا التفسير العلمي أو غيره، كل ما أعرفه أن ما يحدث معي، يتم عن طريق التخاطر لما وراء الطبيعة البشرية، تلك هي الحالة الوحيدة التي تعيش وتسكن داخلي بصمت غريب، أصبح يدهشني تأقلمي معه وقبولي له، رغم رفضي الشديدة، واستغرب لهذا التناقض ولا أفهم شيء، سوى أنني بموقع لا أُحسد عليه، ما كان يعزيني تلك الفترة، أن البعض من البشر يعيشون هذه الحالة من الخوارق الخارجة عن الطبيعة، برضى ويشعرون بتميزهم عن بقية الناس.

مع توالي الأيام حاولت التأقلم مع تلك العادات من التغيرات الغريبة لمزاجي المتقلب، وانبهاري بهذه الأجواء الخارقة، للطبيعة وللبشر، بشكل عام والتي كانت تأتيني، تتشكل بي وهي تخصني بهذا التميز.! بعد أن كبرتُ بعضً الأعوام، بدأتُ أتعايش معها مجبرة كنتُ، ... لا أعرف.؟؟

أم برغبة خفية مني، حين أخذ الفضول يأكلني، ويشدني لأتابع بشغف، مع الخوف والرهبة. بين فترة وأخرى كنتُ أمرُ بمرحلة من الهدوء النسبي، المفعم بالصمت، وقليلٌ من العزلة. أعيش بعض الأوقات منساقة مع تلك القصص التي كنتُ اسمعها بدون تفكير أصبحت تسكن تغليفي العقلي بكل أبعاده.!! أعود بعدها إلى حالتي الطبيعية .. إلى مريم التائهة عنها كنتُ منذ فترة، والتي لم أعد أعرفها، وأنا أحمل معي أثار تلك العزلة التي أسرتُ نفسي بها، هربًا من ذلك الشيء الذي يلاحقني، وهو لازال يصر على تغير مساري اليومي، شئتُ ذلك أم أبيت، لأكون وحدي معه، أصارع ضجيج الاختلاطات والنبوءات والأشباح والأرواح والأحداث، ومع تغير الإحساس ما بين الأشباح والقرين. كنتُ أُصارع التضاد لكل هذه الأمور، الخارجة عن نطاق الطبيعة بكل ما هو خارق، وفوق الظواهر الطبيعية للحاسات البشرية الغير محسوسة، وغير مرئية عند الغير، أما بالنسبة للآخرين وكبشر عاديين لا يلاحظون ذلك أبدًا ولا يشعرون به ، أكدت لي هذا، بعض من الدراسات، وبعد اطلاعي على تلك العلوم الغربية، هكذا تبدأ معنا النبوءات، وحِدة البصيرة، والبصر، والحدث، من الصغر ترافقنا وتكبر معنا. في زحمة كل هذه الأفكار، أخذت تشدني بعض القراءات إضافة لِمَا قرأت، اثارة فضولي حول هذه الظاهرة الخاصة بالبصيرة والأحاديث التي سمعتُ

عنها، شدتني بخصوصية هائلة، كانت مختلفة عن كل ما قرأتُه وسمعته في الماضي، عن البصيرة وهي مختلفة عن البصر.

البصر يعني الرؤية الواضحة من العين، والبصيرة إحساس الرؤية من داخل القلب، والحواس كلها تشتغل وتعمل على حاسة البصيرة .والسبب الذي شدني لتلك الحاسة، كان قراءتي لعبارة من رواية، أو قصة صغيرة كنتُ أسمع بها، وبشكل غير مفهوم، ولكن عندما قرأتها فهمتُ أنها تحكي عن قصة حدثت في الجاهلية، اشتهرت بها زرقاء اليمامة بحدة بصرها وحدثها، وقيل إنها كانت تستطيع الرؤية بوضوح على بعد مسيرة ثلاثة أيام. وقيل أيضا: أنها رأت مرة أعلام غزو، متجهة نحو قبيلتها، فلما حذرتهم سخروا منها، ولم يصدقوها، لأنهم لم يكونوا على علم، بما تملكه من قدرات، لتلك الميزة التي ميزتها عن سائر أفراد قبيلتها، أو يقينً منها بمقدرتها الخارقة والفوق طبيعية لتلك الحاسة. ثم وقعت الواقعة وتحققت نبوءتها وجاءهم الغزو الذي حذرتهم منه زرقاء اليمامة. !!

من خلال هذه القصة، لرؤية بسيطة، بدأتُ ألاحظ وأرى أن البصيرة أقوى من البصر، وهذا ما يحدث كثيرًا بكل العصور وعصرنا الحالي، ولكن لا أحد يأخذه بعين الاعتبار، وربما هذا ما كانت تتميزبه زرقاء اليمامة ولم يصدقها قومها.!!هذه الحكاية وغيرها، عندما نسمعها ونقرأها ونحن أبناء القرن الواحد والعشرين، بعصر العولمة والتكنولوجيا الحديثة، نعرف كيف باستطاعتنا أن نلاعب تلك القدرات، ولا نتركها تلاعبنا، لأننا في عصر المعلوماتية والتحكم عن بعد، كل شيء أصبح مرهون بكبسة زر صغيرة على أحد الروبوتات، بكبسة زر واحدة، ندخل إلى عالم يأتي لنا بكل ما نريد معرفته، وتفتح أمامنا صفحات كثيرة من العلم والمعرفة، لنعرف المزيد والمزيد عن كل ما نريد، بدون أن نتحرك من مكاننا ببساطة شديدة، الكومبيوتر أو الحاسوب الذي أصبح سهل الحمل بحجم اللاب توب الصغير، وأيضًا أصبحنا لا نحتاجه ويعوضنا عنه الهاتف المحمول الذي يجمع مواصفات الحاسوب ويأتي لنا بالغرض والمعلومة التي نريدها، أصبح اليوم الأهم بحياتنا، هو الشيء العجيب والصديق الوحيد الذي يساعدني في بحثي يجلب لي كل ما أريد معرفته بأقل من الثانية إذا كانت شبكة الاتصال متوفرة بالسريعة والحزمة، أبحث كما غيري حول هذه المواضيع، نبتسم ونحن نشعر بمبالغة شديدة وسعادة غامرة حين يأتينا الجواب على كل ما نريد من خلال معلومة أنهكتنا الكتب ونحن نبحث عنها، أوقصة أوحادثة ما، كل شيء بمجال المعرفة أصبح بمتناول يدنا، فنتعلق بها ونستمر بالمتابعة، أو نهملها ونبتعد تاركين

كل ما وصلنا إليه من فضولنا العجيب وما بين العقل والعالم الخارجي مسافة لا يسدها سوى العلم، نعود لنتوقف عند ذلك ونعتبره أسطورة خرافية، لكنها في نظر علم النفس من الخوارق الخارجة عن الطبيعة، الموجود لما هو غير موجود، هي واقعة محتملة الحدوث، لا مجال للمبالغة فيها، أو قولنا عنها خرافة، والاستخفاف فيها لدرجة الاستهزاء، أو لكونها فقط موجودة بعلم النفس، فإنها تحدث فعلًا، كموجات كهرطيسية تدخل عقلي وتجاويف مخي، وتصارع كي لا تسكنه وترفض بشدة ما يحدث لها. يعود ويشدني إليها فضولي الذي لا يتركني أرتاح أبدًا، فتراني مرات أبحث واستفيض في البحث، دون توقف مهما كانت قناعتي لا يهم، بالرفض أو بالقبول، لم يعد يهمني فعلا ولكني مع ذلك كله لا أزال أتعمق وأعيش بين هذه التفاصيل الدقيقة، مرة أتابع بشكل يائس، متقطع أو دائم الاستمرار بعض الأحيانً، لأصل الى حدٍ ما لشيء يقنعني أن ما يحدث معي ليس سوى بعضا من الخوارق لما وراء الطبيعة كما أسمع، قد تكون تابعة للحاسة السادسة وربما السابعة الغير معترف بها حاليا لحد الآن، وأن هناك الكثيرين مثلي يعيشون تلك الحالة الفريدة من نوعها، أو أصبحت عامة بهذا العصر، عصر الشياطين، لأننا نعيش عصر السرعة نقفز فوق التفاصيل الدقيقة لنصل إلى النتائج بسرعة البرق المفاجئ. ولا زلتُ أسير مع الوقت، اكتشفت الجديد من المفاجأة، أبرر أن ما يحدث معي شيء مختلف تمامًا عن كل الوقائع وعن كل ما قرأته، ولا زلتُ أقرأه وأسمعه وأتابعه من تلك الحوادث التي امتصها كإسفنجه عقلي الباطن وخبأها بتلاف يف الذاكرة، يعرف تمامًا كيف يستردها حين الحاجة لها، وها هو حدثي يؤكد لي أنه نوع من التخاطر ليس أكثر، بذلك أتراجع عن كل ما كنتُ أعتقد مرة، وأشك مرات بأنني أخلط بين الأحداث بأمور أخرى، لعدم فهمي لها فأضيع من جديد، وأعود لنقطة البداية تارة أخرى، وحول تلك الدوامة لكثير من التناقضات للبديهيات والمسلمات تدور بي تلك الدوامة كالحلقات المفرغة من كثرة الاحتمالات من التوقع لتكرار حدوثها، كتعاقب الأيام بين الليل والنهار بمفارقات عجيبة متعبة إذا تعمقنا بها، أكثر ما يفاجئني به حدسي، حين يأتيني ذلك الهاتفُ في بعض الليالي، أخرج من فراشي، أفتح باب غرفتي وأتابع خطواتي إلى باب المنزل الخارجي، أفتحه وأخرج منه إلى الفضاء الواسع إلى الشارع إلى اللانهاية والبداية، أشعر بالاختناق أمشي وكأني نائمة، أماكن متعددة أزورها وكأنني أقوم بعملية مسح لأماكن ليس لها علاقة بحياتي بشكل أو بآخر، وعندما أنتهي أعود من حيث أتيت أفتح باب المنزل الذي تركته مواربًا، أُغلقه بإحكام، وأدخل غرفتي وأتابع نومي، وكأن

شيئًا لم يحدث أبدًا، يأتي الصباح ولا أذكر شيئًا مما فعلته، وما قمتُ به ليلة البارحة، أتابع يومي بشكل عادي، كبقية الأيام مع أسرتي، ولا أحد يشعر بي، أخذ فطوري مع أهلي، أذهب مع أبي بسيارته، يوصلني وأخوتي كعادته من كل يوم الى مدرستي، كأن شيء لم يكنُ، ولم يحدث معي ليلة البارحة ولم أخرج من البيت نهائي. كل هذه الأحداث كانت تمر بي بتسلسل زمني معين، وترتيب مكاني محدد، إلى أن أصبحت أتمرجح ما بين حياتي اليومية، وبين ما أقوم به ليلاً، ما بين تلك الظواهر الخارقة، وبين مفهومي الخاطئ عنها، وعندما تأتيني لحظة من الخوف، أرتعب، وأنا أشعر أنه لا يمكنني الغوص فيها أكثر، لعدم استيعابي لها للمرة الألف، مهما حاولت وقرأت واجتهدت، فهناك شيء لا أفهمه من التناقض بين الخوف والرفض، مع الفضول الشديد بداخلي، يسحبني تدريجيا اليها وبنفس الوقت يبعدني عنها، بالنهاية كلها تضاربات لا يتحملها عقلي لا بشكله العفوي ولا الغير عفوي، للعقل الباطني والواعي معًا، كأنهما يمتزجان معًا يتآمران عليَّ بخدعة بسيطة مدبرة لمكيدة تجرني إلى قاع من الظلمات لنور الحقيقة، يتواطآن معا ليوقعاني بها، حين يسحباني هكذا، لأكون مشتتة ضائعة مشردة، أتنقل بين الأماكن أزور العالم من أبواب مجهولة مع قرين لا أعرفه، ولا أفهمه، أنا أعيش داخل نفسي أتقوقع حينًا وأنفرد أحيانًا، وأتمدد أخرى، كيف أصدق ما يحدث ... كيف أجرأ على تصديق ما يحدث لي. ؟؟

كيف بوسعي أن أفهم تركيبة تلك الحوادث الغريبة المتتالية، التي تأتيني بعد أن تحدث للناس حولي، كيف أفسرها. ؟؟وتحت أي بند أصنفها، لا أعرف كيف أستردها، حين يلزمني فرز لعناوين مجلداتها من جديد حين أحتاجها.... عمري الصغير الذي أنا به اليوم، يلبكني لا يتركني أستوعب من هذه القصص الكثيرة، خاصة ما حدث لأمينة فيما مضى، كيف وصلت لحالة غريبة من الجنون ربما، كل ما أتذكره أنني كنت مع أطفال الحي، نركض وراءها حينما نراها آتيه، من أول الحارة، نهتف جميعنا معًا، جاءت المجنونة، بنغمات شجن ننسجها كأغنية لها تراتيل معينة، لتدمير ذات بريئة لنفس بشرية كاملة، أطفال كالشياطين كنا، نلعب بكل شيء تحت مسمى أطفال وندمر الكثير من النفوس، ومن المسؤول عن هذا التصرف الذي نقوم به، غير مفهوم ولا معروف، لا أعرف من اخترع تلك الأغنية حتى أصبحنا نرددها كلما رأينا أمينة. كيف وصلت أمينة الفتاة الهادئة الرزينة إلى هذه المرحلة ليقال أنها مجنونة.؟ هذا ما كان يردده أهالي الحي عنها، كل ما شعرت به أمينة ذات يوم، هو تغير غير طبيعي بطريقة إحساسها وتفكيرها، وبأنها ليست عادية أبدًا، تلك الأحاسيس التي اقتحمتها

فجأة، وهي عائدة من عملها كعادتها كل يوم، كأن ظروف غامضة لأحداث مرت معها جعلتها تتغير، نراها مكتئبة أحيانًا، وحزينة أحيانًا، فرحة مستبشرة مرات، أحيانًا تكون بحالات غريبة غير متوقعة منها ، حزن شديد يغمرها، شعور غامض بالقلق يتملكها، تُصرح قائلة : أن مكروه سيحدث لها، أو لأحد أفراد عائلتها، أو ربما ليوسف خطيبها، الشخص الوحيد الذي أحبته، والقدر يبعدها عنه اثر حادث رهيب كانت ترى ذلك بعين البصيرة، مما زاد خوفها وجعًا على وجع، لقد أصبحت تعيش تلك الحالة الغريبة باستمرار، تقترب منها وتبتعد، وكأن شيئًا يلعب بها، ويتصرف نيابة عنها، ويوسف يلاحظ كل ذلك التغير عليها مستغربا. !!

سألها ذات مرة متعجبًا: بماذا تشعرين يا أمنية، أخبريني يا حبيبتي ماذا بكِ. ؟؟ردت قائلة: لا شيء البتة أيها الحبيب، هي فقط بعض الأحاسيس والهواجس تعيشني تلك الفترة برعب وتوتر من الشغل، وكثرة ما يحدث معي من تعب وإرهاق نفسي، من ضغط العمل، هناك تغيرات كثيرة لأفكار تتملكني ومسؤولية شديدة وضعت على عاتقي وحدي، بالنسبة للعمل، كل ذلك ترك أثره، فأرجوك يا حبيبي لا تهتم لهذه الأمور السطحية كلها ستنتهي عندما ينتهي ضغط العمل وأعود كما كنت واتفرغ لك وحدك لنؤثث حياتنا معًا، كن واثقٌ من ذلك، لا أطلب منك سوى أن تمهلني القليلٌ من الوقت ونعود أفضل مما كنتُ، كما قلتُ لك أطمئن أنتَ، حُبكَ هو الأمان الوحيد بالنسبة لي. شعور يهزها بقوة، للتوقع بأن حادث غريب سيحدث، بمكان ما من المؤسسة التي تعمل بها، يبدأ تحذيرها لمدير المؤسسة أن ينتبه، وأن عقود مزيفة ستبرم ويتم توقِعها بضغط كبير، ضمن مشاكل كثيرة وخسارات جمة، الجميع يسمع ما تخبرهم به، يستهزؤون منها ومن أفكارها، حتى وصل بهم الأمر جميعًا بمن فيهم المدير المسئول للتشاؤم منها ومن أفكارها، ومن وجودها كله أصبح مرفوض وهي تكشف حقائق يتستر عليها المسئولون، وصلت إلى مرحلة ستفضحهم بها، وبما تعرفه من مستندات، بالإضافة لتلك التوقعات والاستنتاجات التي تخبرهم عنها كل فترة وأخرى، وهذا ما جعلها بشكل عام مرهقة الأعصاب ومشتتة الأفكار، خاصة عندما أنذرتهم بإحساسها الأخير، بأن حريق سينشب بمستودع الأرشيف الإضبارات العملاء، لم يمضي المساء حتى أبلغهم الحارس الليلي، أن حريق شب بمديرية التأمين ونهشت النار ملتهمه كل شيء، جاءت سيارات الإطفاء تتسارع في الوصول، تحاول قدر الإمكان، إخماد وإطفاء ما تبقى من إضبارات ومستندات وعقود وغيرها من معاملات، الخاصة بالعملاء وبالشركات العامة والخاصة. كانت تلك الحادثة هي

السبب الأساسي لِمَا وصلت إليه أمينة، والقشة التي قضمت ظهر البعير كما يقال، ولكن النتيجة جاءت بفصلها من العمل، ونَعتها الجميع، بأنها مريضة نفسيًا وغير مؤهلة لتحمل مسؤوليات العمل والالتزام به وتهم كثيرة أخرى ولكن شيئًا ما إلهي، حماها من دخلوها السجن واتهامها بافتعال الحريق والمسببة الوحيدة له.؟

أصبحت تهلوس بأشياء غريبة، من الصدمة التي أخذتها كصاعقة من مديرها، كانت تحترمه وكان يثق بها ويشغلها ثقة عمياء، حتى هذه لحظة لحدوث الحريق، والذي حدث بسبب توقعها المشؤم وليس لأنها المسببة له، لم يبقى لها شيء سوى ذاتها المريضة، هكذا أصبحت بنظرهم، أخذت تهلوس بمفردات غريبة من الصدمة التي تلقتها، وتتفوه بكلام لا تفهمه ولا تعرف مصدره، ولا معنى محدد لِمَا تقول، حتى أبتعد الكثيرون عنها، بعد أن كانت الصديقة الودودة المرحة مع الجميع، وها هي خسرتهم واحد تلو الآخر بتلك التوقعات المأساوية التي تخبرهم بها حتى حصل ما حذرتهم منه ولكنهم لم يربطوا الأمور ببعضها ليتجنبوا الأحداث القادمة من دمار وسرقة بقدر ما أمكن.

أحيانًا كان حدثها السريع يحمل لها أنباء سريعة، ينبئها بكوارث ستحدث في مكان ما، وزمان ما لأشخاص لا تعرفهم، عندما تتحقق نبوءتها، تنتابها حالة غريبة من الذعر حتى من نفسها. ترتعب كثيرًا، عندما تفكر بما يحدث معها، وتقول لنفسها: أنا لست منجمة ولا عالمة فللك، وأيضًا لستُ عالمة بالغيبيات، لستُ ليلى عبد اللطيف ولا ماغي فرح ولا ميشيل الحايك ولا أحمد شاهين ولستُ جاكلين عقيقي، أنا عبدة فقيرة لله ، وهذا هو الصحيح، فهي لا تعرف كل هؤلاء الأشخاص اللذين يتنبؤون بالغيب، ويرعبها مجرد التفكير بأنها ستكون واحدة من هؤلاء يوما ما، لكونها ليست مهيأة نفسيًا لذلك ولا تتقبله، هكذا استمر حدثها يخبرها بالكثير وتهذي بالكثير من الأمور الغريبة، وإحساسها يتابع معها تلك التغيرات حتى أصبحت بعيدة عن كل من حولها وتنفرد بنفسها ساعات طويلة، يبتعد عنها أقرب الناس لها وهي تتساءل لماذا كل هذا يحدث لها إلى أن فقدت عقلها نهائيًا. !!

عندما سدت كل منافذ الأسئلة لعدم وجود جواب شافٍ يأتيها به أحدهم.

لم يتوقف يوسف عن متابعة أخبارها من بعيد يرقبها وقلبه يتقطع حزنًا وألمًا عليها، كان متأكد أن شيء مهم وغريب وغير عادي حصل معها ولعقلها ربما شيطان لبسها وتمكن من الدخول لروحها والعيش بجسدها، اضطر إلى أن يستمع ويصغي إلى كل ما يتناقله أهل الحي الذي تسكن به أمينة، والحي المجاور لهم أيضًا يتناقلون

ذات الأخبار عنها، ولا يصدق يوسف ما يسمعه عنها، أحياناً يحثه الفضول في التعمق المتواصل لمعرفة ما حصل، وما يحصل مع أمينة، ليتأكد من معرفته فدفعه ذلك الفضول، أن يسأل بشكل مباشر أهلها وأخوتها، وللمرة الألف لم يأخذ منهم جواب شافي لتساؤلاته الكثيرة، وكأنهم جميعًا متفقين بعدم الرد ولن يجيبه أبدًا، ربما لأنهم لا يعرفون شيء مما يحدث معها، وما يحصل لها، وهم أيضًا في حيره من أمرها، الأم تبكي أبنتها الصبية الجميلة المثقفة بصمت وتأخذها لحضنها كل مساء وصباح، وتقرأ عليها بعض الآيات القرآنية خوفًا من أن يكون مسَّها جني، ما أصابها مسٌ شيطاني لا محال، كما يتداول أهل الحي، وبقراءة بعض السور القرآنية تعود لحالتها الطبيعية، لكن دون جدوى. وحين يعاود يوسف السؤال عنها بعد مدة، ينظرون إليه نظرات حزينة، تملئها الحسرة والألم ولا كلام يقال له ليفهم، حين يصمت الجميع عن الكلام المباح كشهرزاد، لا يجد أحدً يساعده يصل إلى أي نتيجة برغم كل محاولاته الكثيرة لمساعدتها في الخروج مما هي فيه، فيبتعد مرغمًا فترة من الوقت ليعود بعد فترة أخرى ويرى تدهور حالة أمينة، ويتأثر لحالها لأنه يُحبها ولكن لا جدوى من هذا الحبن أمينة خرجت من النطاق الدائري للحس البشري ودخلت الحس الإلهي، وهكذا أصبح يوسف متأكد، أنها ليست أمينة التي أحبها وخطبها ... ليست هي. !! دائما يأتيه الجواب الوحيد الذي كان يسمعه منها زمان، ويتردد صداه الآن يأتيه من أعماقه أنها تحبه وأنه يحبها، وإن شيئًا لم يتغير حتى آخر لحظة، وأنها بألف خير ولازالت تحبه وعلى عهدها له لتعيش معه بقية العمر، ولكن للأسف كل هذا أصبح أوهام لا وجود لها. وتفكير أمينة لم يعد ملكها، وأخذ منها كل وقتها، ولا يعطيها أي فرصة للاستراحة أو حتى لإجازة قصيرة لترتاح وتعود إلى ذاتها، وهي لم يعد بمقدورها أن تفعل شيء، ولا تستطيع فعل شيء، هذا ما تصل إليه حين تفكر بما حدث معها كل ذلك، وتعرف أن السبب الوحيد، هو أنها وافقت من البداية على شروط العقد وتم استغلالها، عندما تقدمت بطلب التوظيف وتم توقيعها على العقد وموافقتها على الشروط وتم تعينها على هذا الأساس، موظفة لديهم، كمديرة لقسم الإشراف على عقود التأمين وهي المسؤولة مسؤولية مباشرة، بالموافقة على تلك العقود أو رفضها إن كانت مستوفية للشروط أو غير مستوفية. القرار لها، هكذا كانت شروط عقدها معهم، ولا تستطيع فك العقد ولا مطالبتهم بأي تعويض، وخرجت من المولد بلا حمص، لا عقل لها ولا مورد يعينها جردوها من كل شيء، غادرت المؤسسة كما دخلتها خاوية الوفاض، حتى الاستقالة لن يوافقوا عليها. ويصمت يوسف ويأخذ لنفسه اتجاه آخر ويبتعد

تدريجيًا ويَفهم أن أمينة لم يعد يعنيها يوسف حبيبها وخطيبها فالعمل والمركز المهم والراتب الكبير والتعويض الذي تتقاضاه، أهم بكثير من علاقتها وزواجها منه كما اتفقا سابقًا. هذا ما وصل إليه يوسف أخيرًا، كرسائل من خلال تصرفات أمينة، الغير منطقية معه فاختار البعد يائسًا. كان لأمينة بداية تخرجها هاجس واحد تسعى إليه لتحققه، هو الزواج بيوسف بعد أن تعلق قلبها به وأحبته، حلمها كان الزواج منه ولا شيء آخر تريده من هذه الحياة، سوى زواجها ممن أحبتْ، هو الرجل الوحيد الذي اقتنعت به وأحبته، لذلك قبلت الزواج منه بحب وشوق لعشق كان يسكن قبلها ويتربع عليه بثقة. لكنها بدأت تشعر أن يوسف يهرب منها، يمر لزيارتها بعض الأحيان مرغمًا كواجب عليه وليس حبًا واشتياقًا لها.

هذا ما كانت تلاحظه عندما يأتي لزيارتها يمضي وقت قصير يشرب قهوته ويغادر معتذر، ترافقه عند الباب وتسأله: ماذا بك.؟ أرجوك قل لي، أخبرني كما كنت تفعل.؟؟

ينظر إليها بصمت يتأملها وهو يقول أخيرًا بعد إلحاحٍ منها: أسألي نفسك قبل أن تسأليني. تأملت ما حولها بخوف شديد وحذر أشد وفهمت أن شيئًا تغير ولم يعد الحب الذي كان يجمع بينهما موجود، ولا تدري ما هو السبب، ماذا بوسعها أن تفعل وهي تعرف أن تلك الحاسة التي ترافقها وتنبئها عن حدوث فاجعة، أو مأساة ترهقها وتتعب نفسيتها من التوقع والانتظار، هي السبب إذًا لتفقد حبيبها وعملها بوقت واحد. تعود وتقول لنفسها متعجبة كيف خسرت حبيبها بعد أن خسرت كل شيء. ؟؟

كيف ستعيش بهذا العالم الظالم المخيف، المليء بالنفوس الشريرة حولها، تراها أحيانًا تتوغل بين متاهات معينة من البشر، ليُفسد كل شيء جميل كان بحياتها ولا تستطيع فعل شيء سوى الترقب والانتظار والتحذير، ولا أحد يسمعها ليقتنع بحاستها تلك، بل وعلى العكس يعتبرون أنها أصيبت بخلل عقلي ومسٌ شيطاني. كان يوقظني هذا الإحساس ليلاً، وأنا أصرخ لن أعيش كأمينة ابدًا، أخرج من البيت وأنا أسرح بشوارع الحي كالمجنونة. !!وحين أستيقظ صباحًا أعود مع نفسي لأستكمل حكاية أمينة، أتابعها وهي تقول إنها لا تفهم تمامًا أن أحدً لن يفهمها مهما كان، ولا يوجد هذا الشخص بالأصل حين نصل إلى حافة الجنون. تلك لأفكار الغريبة التي تشعرها أصبحت تعيشها ولوحدها، حين بدأ يوسف يتحجج بحجج واهية ليبرر لها أعذاره الواهية عن غيابه الكثير، اعتذاراته تلك من كثرتها لم تعد تعرف كيف تحصي عددها وعندما تتصل به وتسأله عن سبب تأخيره في المجيء إليها وزيارته

لها للخروج معًا كما تعودت منه، يتعلل بمشاغل كثيرة أو بمرض ما، أو أن لديه مشاكل عائلية كثيرة تتعبه ... يلفق لها كذبة، يخترع أية كذبة وأي سبب ليهرب منها ومن لقاءها، كأن قلبه توقف عن النبض لها، مات الشوق وأعدمت تلك اللهفة التي كانت تتنفس منها رئتيه لرؤيتها.مات كل الحب ... هو أيضًا لا يعرف كيف، فقط هو يراها إنسانة أخرى لا يعرفها، ليست هي أمينة التي أحبها وأرتبط معها بعهد حتى آخر العمر، أن يكونا معًا ولا يفرقهما غير الموت ..!!عرفت أمينة تمامًا أن علاقتهما تسير نحو النهاية بطريق مسدود لا رجعة منه، ولن تستمروأن إحساس لديها يخبرها بذلك، حتى أصبحت ممزقة، داخل لغة لا تستطيع تفسيرها، لأشياء كثيرة الغموض تتوالى حولها. مجموعة من المشاعر المتقلبة كانت تشعر بها أمينة بين فينة وأخرى وتقول: كأن روحي أصبحت أسطورة تعيش في زمن مضى وحاضر يرفض الحدث بذاته، كانتمائه لزمن الخوارق.

تتمسك الأسطورة داخل جسدي كشرنقة تستعصي الخروج، تعطيني اكسير الحياة لأعيش أو أموت بين الذاتية من الغموض والواقع الرافض لكل شيء حولي، تُغلفني شرنقة الجسد، جسدي الملفوف بها ولا تتركني أخرج منها كدودة قز، تقتلني لتستفيد مني بنتاج الحرير الطبيعي مثل شرنقة دود القز. !!يتعبني كثيرًا أن يكون هناك شبهٌ كبير بالكروزومات والجينات ما بيني وبين أمينة، أو هناك شبه كبير بيني وبين شخصيات تلك الحوادث والقصص التي مرتْ معي على مدار ومراحل طفولتي الصغيرة ولكن بعقل غريب، تلك القصص هي التي تبعث رائحة العودة، لتعيش بيومياتي، بكل ما لها من تداعيات بذاكرتي الصغيرة، التي مرت مع أهلي وجيران أمي وصديقاتها، سمعتها ورأيتُ تفاصيلها أمامي خزنها عقلي الباطن وها هو الآن يعيد استرجاعها بومضات كالسحر تأتيني، وبالأوقات التي يراها عقلي الباطن مناسبة للظهور، حتى كدتُ أشبه كل تلك التفاصيل التي مضت مع الآخرين، وأحاول أن أُشبه نفسي بهم وجميعًا غير مختار في تحديد ما يحدث معي مع تعاقب الفصول من الأيام والسنوات لعمري. ؟؟بين ضوضاء النفس الفانية بداخلنا تتقاذف بنا طقوس الحياة، قبل خروج الروح، طالما يعيش بين خلايانا الميتة، ذلك النزع الأخير، ذلك التوقع بأن هناك حياة أخرى متجددة، معقدة التفسير، نضيع مع معالمها أكثر الأحيان، نجدد دائرة البحث عن الحقيقة، تضمحل الرؤية حول الوجود وخارج الموجود وداخله ... يتغير النطاق العام لِمَا فوق الطبيعة. !!بعد تلك التغيرات الكثيرة التي حدثت لأمينة، أصبحت مريم تعيش حياتها الخاصة متأكدة من تشابه يجمعها بأمينة، ومع تلك

الأرواح التي تخترق كل الحواجز البشرية، تزورها تحمل عنها ترقب الحدث وتوقعه قبل حدوثه، ترتعد قبل أن تأتي إليها تلك تفسيرات من الألغاز الغامضة.

تستقر بهدوء، قبل لحظات دقيقة من توقع الحدس، مرافقة للأسرار التي تزورها بأوقات متفاوتة، تزداد تلك الإشارات، تدخل النسق الأخير، تسكن وتتمكن من جسدها وأفكارها، تسير بها كتيار عاصف من الحياة الكونية، تزرع بداخلها بعض الخوف من الانهيار للتيار النفسي، الذي يترابط زمنه مع تجسده وتملكه منها، ومن كل حركاتها وأفعالها، هي تعرف تمامًا أن روح أخرى تسكنها منذ مدة، تعرف أن كل هذه الأشياء التي تحدث معها، من الرؤية السابقة لحدس ما، أو لشيء إلهي، وسر من أسرار الكون، للغيب الذي لا نعلمه، هكذا أصبح تسيطر عليها تلك الأفكار. وكل هذه الاحتمالات كانت واردة، عندما حللتها أمينة وفكرت بها، عادت للبداية تفسر الأمور التي مرت لتمسك بطرف الخيط، تأكدت أنها تجليات لا أكثر، تأتيها كحاسة سادسة أو سابعة، لا تدري أي مسمى تختاره لها، أو كيف بإمكانها التعبير عنها، لتقنع من حولها بحدثها لرؤية غريبة تراها قبل حدوثها، ولا تعرف من أين يأتي إحساسها العجيب بذلك الحدث أكثر الأحيان، تعجز ولا تستطيع أن تحدد أسباب أو ترتيب لتدافع الرؤية للحدث وتوقيت حدوثه، كيف ومتى تأتيها تلك الحالة تعيشها وتصبح خارج نطاق التغطية للواقع الذي تعيشه.... هي وحدها من يعلم، ووحدها أصبحت متأكدة أنها تحمل قوى خارقة لِمَا وراء الطبيعة، بنسبة ما٪ . بدأت تكتشف وتتعرف على حاستها الغريبة عنها، يقينًا لا تعرف مصدرها ولكنها موجودة بداخلها، لن يصدقها أحد كما أنه ليس عليها تجبر أحد ليفهما، وما يعتريها من تبدلات غريبة تؤثر على تركيزها، تتابعها بدون رغبة منها، أو تكون تلك رغبة كامنة بعقلها الباطنة ومخزنة من مدة طويلة. هكذا أيضًا أخذت تدخل في التفسير والتحلل لوجودها وعدم وجودها، لكنها كانت تعاود التأكيد لنفسها، أن أحدً لا يمكنه أن يشعر بها ليبرر تصرفاتها، تأثُرًا بما يحدث لها، أنه ليس جنون، فهي لم تفقد عقلها بعد، ما يحدث لها ليس شيء عام، إنه حدث خاص وخاص جدًا يختار نخبة من البشر، من يمتلكون شفافية وروحانية خاصة، إنهم أولئك البعض، من لديهم رهافة حس مفرطة تجاه الطبيعة، وخوارق الطبيعة، والكون بشكل عام، تمتزج الروح وهي تستشف الكثير من الغيب. تعلل . وتحلل . وتركب . وتفسر. وتبني أفكارها لتحصل على نتيجة مقنعة ولا تصل لما يشفي غليلها ولا تُرضي مفهومها بالكامل. !!

كأنها لا تريد أن تقتنع لتفهم ولأجل ذلك لن تبالي ...!!

هو تفسير واحد لا ثاني ولا ثالث له، ما يحصل لها، قد يكون منحة كونية، خصتها بها الطبيعة الإلهية لتميزها عن سائر المخلوقات الإنسانية. ؟؟

تعود لتستغرب ما يحدث لها، وتقع بالحيرة من جديد، ومشاكل كثيرة لا حصر لها. عجزت عن الكلام، بوقت هي فيه بأمس الحاجة للكلام، لكن من يسمع، حين يكون الكلام هو المنقذ الوحيد لتصديقها يوم المواجهة.

تعجز عن التفكير، كما عجزت في إيجاد تفسير لتلك الظاهرة فرفعة الراية واستسلمت، كلما حدث معها إحساس بتنبؤ لحدث ما، كانت تتكلم بدون تركيز ووعي في نقل الإحساس للواقعة التي ستحدث لذلك نفر منها المقربون وابتعد الناس المخلصون عنها تدريجيًا. لم يعد لها سوى الحديث مع نفسها: لماذا يفعلون بها ذلك، يبتعدون عنها ويتركونها بمحنتها ولا يقدرون أنها بحاجة لهم لكي يتفهموا أن ما يمر بها حالة عامة وليست جنون، هي حالة تشعرها أحيانًا تتملك الأفكار التي تسكن العقل، تشرد به بقوة سحرية غريبة، لا تعلم مصدرً لها، تعترف مرات لنفسها أن احدًا ما يسكن فينا، يتصرف نيابة عنَّا، ويقودنا لأبعاد من الخيال السحري، يمزج الواقع مع الخيال، وربما بعض من الخيال العلمي لشيء لا نفهمه بالبداية ولا حتى في النهاية، إنها ظواهر غريبة لا تقوى على فهمها أبدًا، تفسره على أنه نوع من السحر والشعوذة، أهذا ما نعتقد.؟ ألا أنه الأسهل والمتداول بكثرة بالتفسير، نعتقد أيضًا أن أحدهم أستغل استقبالنا لوجوده، فيكركب حياتنا ويسكننا الخوف، ولا نعلم أن هناك قوة خارقة تسكن بداخلنا تتحين الفرصة لتظهر لنا، تتحرك وهي تدور في فلك الكون تزور الأرواح الشريرة، تحاسبها وتعاقبها على أفعال غير إنسانية تقوم بها. عاشت أمينة حياتها حتى النهاية وهي بين الأرواح تتناقل الأفكار ويصور لها عقلها الذي أصبح مريضًا، يمرجحها بين عالمين من الجن والإنس، لم تعد تعرف كيف تفصل بين الحواس التي تلعب بها وتُبَرمِجُها على نمط معقد، وهو يهمس لها بالمستحيل، أخيرًا فقدت عقلها كاملاً، أصبحت تمشي بشوارع المدينة وأحياءها، ويمشي وراءها أطفال الحي، ويصفونها بالمجنونة الخارج من جوفها جني أو يسكنها شيطان، ينظر إليها المارة نظرات عطف وشفقة وهم يقولون: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. العقل زينة بني آدم، فكيف بوسع الإنسان أن يحافظ عليه. شرارة كهربائية ضربت على فيوزات عقلها كما يقولون ويهتفون، كلام كثير لا مبرر له سوى الضغط عليها لتتصاعد نوبات جنونها فعلاً وتصبح حقيقة، كل هذا أصبح يحدث معها في شوارع المدينة وأحياءها أينما يصادفوا أمينة يهتفون لها بذلك. ما بين

العقل والجنون شعرة واحدة وبسيطة إذا ما قطعتْ...!!كنتُ أنا مريم أصغر الأطفال عمرًا، أتوه وأسرح بين الأطفال اللذين يلتفوا حولها مرات، يقطعون عليها الطريق، يدورون حول فلكها الأرضي وهم يصرخون بأعلى صوتهم المجنونة أهي ... المجنونة أهي، وأنا أردد معهم ما أسمع. !!مع مرور الوقت وما حمله من احداث غريبة، كان لديَّ سؤال واحد يقلقني التفكير فيه، هل يمكن أن أصل يوم ما الى هذه المرحلة التي وصلت إليها أمينة، عقابًا لي لِمَا فعلته بها حين نعتها بالجنون مع بقية الأطفال. فوصلت الى الجنون .. !! الحالة التي وصلت إليها أمينة كنتُ سببًا لها، ولن يصدقني أحد ممن حولي أنني فعلتُ ذلك بها مع أولاد الحي، وأولاد الشوارع، حتى أمي حبيبتي لن تصدقني. ؟؟بعض الأوقات تتغلب علينا وتتملكنا هواجس لأشياء غير محسوسة . ولا محسوبة. ولا مفهومة. ولا يوجد لها منطق، أما بالنسبة لي فإني أشتاق وأتمنى أن يكون أحد قريب مني، أحكي له وأشكي له همومي الكثيرة، وكلما ازدادت كثرتُها ستخنقني ذات يوم، لذلك أريد أن أفضفض لأخفف من ثقل ذلك العبء وأرتاح، خاصة عندما أجد الشخص الذي يكون عنده القدرة والاستطاعة على استيعاب ما أقوله ويترجمه لي، يعطيني شرح وافي لكل التفاصيل التي أعيشها ولا أفهمها، لكنني متأكدة أنه لا يوجد أحد بهذا المستوى من الفكر، يستوعب ما أشرحه عن حياتي بهذا التسلسل الزمني كما حدث معي بتفاصيله الدقيقة المملة، لأبعاد غير محددة زمان مموه، ومكان غير مرئي. وغير معروف، بالنسبة لتناقضه وامتزاجه بين واقعين أعيش بهما، لكني لن أكون أمينة أبدًا. سأساعد نفسي وأكتم ما يحصل معي إلى أن أصل لقناعة ترضيني فيها كل التفسيرات المنتظرة.

لكن أكثر ما يقلقني بحالتي تلك الغير مستقرة على وضع معين، هو ذلك التخاطر أو القرين الذي يرافقني، لم يعد تهم تسميته، أو أطلاق أي اسم آخر عليه، الأهم هو غرابة تداوله معي لهذه الأخبار، التي يأتي بها، هذا القرين الذي ظهر مؤخرًا، ليقول بأني لستُ ابنة والديَّ، وأن العائلة التي أعيش معها ليست عائلتي، قال ذلك بدم بارد كالجليد، بدون عواطف، صعقني بالضربة القاضية، كصاعقة كانت ضربته، ما أخبرني به لا يمكنني تصديقه لهول مفاجأته المفزعة لي، خاصة عندما أخبرني إنه سيعرفني على أهلي الحقيقين .... يا لجرأته، إلى هذه الدرجة وصل تطاوله عليَّ، ليؤكد لي صحة كلامه، مهما كنت صلابتي قوية فأنا هشة ... هشة وضعيفة، كيف بوسعي أن أتأكد من صحة ما يقول؟ ليس لدي حلٌ آخر، سوى الانتظار، والعودة إلى الماضي لأستنبط من الذاكرة، من خزينة المؤونة المختبئة بين دواخل الروح، القليل

منها أو الكثير لصحة ادعاءاته، أسحبها لأقتنع بما تسعفني به الذاكرة من معلومات، أصدق ما أسمع منه أو أنفيه تمامًا.؟

أتعجب لإصراره على تأكيد كلامه لي: من تعيشين معهم ليسوا بأهلك، وعليكِ يا صغيرتي أن تبحثي عن أهلكِ الحقيقين، ولديه اقتراحٌ أيضًا، وبمقدوره أن يأخذني ليدلني على أهلي الحقيقين، وأن من أعيش معهم مزيفين ليسوا هم أهلي الحقيقين اللذين أنجبوني ...ما هذا الهراء الذي أسمعه. ؟؟

أخرج من متاهة أمينة لأدخل بمتاهة أني شريدة أعيش مع ناس أغراب ليسوا بأهلي ولكن كيف. ؟؟

عند استغرابي ودهشتي وعدم تصديقي له قطع على نفسه وعد وأخذ على عاتقه توصيلي بنفسه للعائلة التي أنتمي لها، ووعدني أنه سيساعدني في الوصول إليها، وبذلك أستطيع التحقق من صدق كلامه كما يقوله، والموعد للذهاب إليهم سيكون قبل الواحدة بقليل ظهرًا، دائمًا يردد كلامه بأنه يلتزم بهذا التوقيت قبل الواحدة بقليل، فقط لو اتبعتُ تعليماته بدقة متناهية. يا لهول ما أسمع. ؟؟

مع توالي الأيام جعلتني مفاجأته الغريبة أسرح معه ومع أفكاره التي ينقلها لي والبعيدة عن الواقع، كلها مجتمعه جعلتني أتعلق بالتفاصيل الصغيرة والدقيقة لِكل مَا أخبرني به وأنتظرها، في لحظات الانتظار تلك بدأتُ أستسلم له كليًا، لأكتشف صدق كلامه أولاً، ثانيًا لأُرضي فضولي المستميت في البحث عن الحقيقة التي يخترعها وبيان صحتها، ثالثًا قدرته العجيبة التي استطاع من خلالها أن يضعني في تشويش ذهني مفرط والموافقة في البحث نسبي ، كيف أستطاع أيضًا أن يفرض قراراته على عقلي بشقيه الواعي والغافي (الباطن)، رفضٌ قاطع كنتُ قد أخذته على نفسي ألا أنكسر له واطيعه، فمن المستحيل أن يأتني صوتٌ من داخلي يخبرني أن كل ما يقوله لي هذا المجوسي صحيح، أو أنه يوافق على كلامي بعدم تصديقه، لا يمكنني تصديقه مهما كانت صحة ما أخبرني به، يجب عليَّ رفضه دون الغوص بالأسباب مهما كانت المبررات، محال أن أنقاد له، هو يريدني أن أتبعه وأكون معه، بشرط ألاَّ اناقش وأُجادل بالتفاصيل الدقيقة، وأستفيض معه بالنقاش، هذا كله ممنوع... لا يمكن أن أصدق ما يقوله لي: لا يمكن. !!

هو مجرد صوتٌ أسمعه ويجب عليَّ أن أصدق كل ما يقول هذا الصوت.؟

ببساطة شديدة يقول لي. أن حضن أمي الدافئ، ليس حضني. وأن أمي ليست أمي، وأخوتي ليسوا بأخوتي وأبي ليس أبي وجدتي الحبيبة الغالية وذكرياتي معها ليست

جدتي. !!نسف العائلة كلها التي أنتمي وأعيش معها.

ابنة من أنا ...؟؟

ابنة من أكون إذًا ... لقيطة أنا. ؟؟يستحيل أن أصدق أكذوبته وادعاءاته الفارغة لا يمكن .... كيف. ليكن جَريئًا ويَظهر لي، لماذا يخفي نفسه عني؟ ماذا يفعل بي هذا القرين المجوسي .... وإلى أي من المتاهات يأخذني معه. ؟؟

يجبرني على أن أتبعه ليلاً ونهار، منساقة وراءه بضعفي وقلة حيلتي أصبحت، صامته كخرساء ، راضية دون اعتراض، كيف أستطاع أن يسيطر عليَّ كل هذه السيطرة، وبهذا الوقت القصير، كيف استطاع أن يجعلني أنساق له كنعجة تنتظر قضاء الله وقدره على يد هذا اللعين، برغم أني لا .... لا أصدق ولا كلمة واحدة مما يقولها لي، لا يمكن أن أصدقه ... لا يمكن. !!خوف كبير يسكن جوفي الفارغ من كل شيء، أشعر بضياع وحاجة شديدة للبكاء ولا أستطيع أن ارفع صوت بكائي ونحيبي، وأجهش به عاليًا لأني أخافه، على كتفِ من أبكي.؟ ومن يمسح دموعي، وأنا وحيدة، أين هي أمي.؟ هناك غصة بقلبي تأكل حشايا صدري وتقطعه، أريد أن أركض إلى حضنك يا أمي أحتمي به لأدفئ بك، ولكن ليس بوسعي فعل أي شيء من هذا الآن، أصبح للبعد مسافات بيننا، كأني مقيدة بأسرٍ وسلاسل تسحبني إليه، فقط اسير معه، أتَّبع تعليماته نسخ لصق، انفذها بحذافيرها، بتلقائية غريبة، يذهلني خضوعي له وأنا أرفض وجوده، ألأني أخاف من روايته لي أن تكون حقيقة، أم أخاف أن أصبح يومًا كأمينة. ؟؟يرعبني التفكير بذلك ... يرعبني. أو لأنه يرعبني حقيقة بتهديده لي وقدرته على تحويل حياتي الى جحيم، كما يذكرلي دائمًا بهذا الانقلاب المفاجئ. ؟؟

من يكون أبي، ومن هي أمي، وأخوتي عشتُ معهم عمري الذي أحببته، وأحببتُ حياتي معهم وأحببتهم، كيف وصلتُ إليهم لأكون بينهم وأعيش معهم على أنني ابنتهم، كيف يأتي هذا الشيطان وهذا التابع المجوسي يأتي. يدخل ويسمم لي حياتي يفاجئني بالمستحيل، أن أهلي ليسوا أهلي ولستُ ابنتهم. ؟؟لا يمكن ذلك أيها الماكر... لا يمكن. ؟؟ صراع ... صراع وصداع فظيع يضرب على رأسي ويكاد يفجره. !!

كيف أمضيتُ كل هذه السنين من العمر معهم، وأنا أكبر وأعد الأيام السعيدة التي عشتها بهم وبينهم، لأصل بالنهاية بأني لستُ ابنتهم وأنهم ليسوا أهلي. ؟؟كيف ذلك ... كيف يا رب. !!

الشيطان له قرين ...وأسمهِ مموه .... ؟؟؟

وقريني أسميته المجوسي لأنه نجس، حقيقة أنه نجس. !!

أي قرينٌ هذا الذي ترك العالم كله وتلبس بي. ؟؟

لم يرى فتاة صغيره غيري يلبسها ويهدم حياتها ويدمرها، أليس هناك أضعف مني.؟؟

أي شيطان يخترق جدران نفسي الصغيرة، يسحبني بكلمة واحدة وسخيفة من بين أسرتي الحبيبة، ويجب عليَّ أن أصدقه وأتبعه لأرى من هم أهلي الحقيقين. ؟؟

ما هذه الخوارق الخارجة عن الطبيعة التي يتحدثون عنها، ويتفلسف بها البعض ليدمرني وأنا بهذا العمر. ؟؟

ماذا يفعل بي هذا الشيطان الماكر الخبيث؟

إلى أين يأخذني ويقودني بأفكاره الجهنمية، يسمم حياتي كلها، بكلمة واحدة تحط عليَّ ككارثة تدمرني وتدمر كل شيء جميل دفعة واحدة بدون مقدمات. هل يُعقل أن كل ما خزنه عقلي الباطن من أحداث طفولتي، والحكايات المتتالية التي سمعتها على مر العمر، وهو يقطع بي أشواط ومسافات من السنين القليلة التي مرت بي، يأتي اليوم لينبش كل الذكريات ويقلب الذاكرة رأسًا على عقب، يحتلها بكل ما فيها ليحيل تلك الأوهام والخرافات ويحولها إلى حقيقة، أو هي حقائق تحدث معي .؟ وبضربة واحدة تهدني، كيف سيتحملها عقلي وهو لا يزال صغير، وحجمي الجسدي صغيروعمري الزماني صغير، كلمة واحدة قالها لي، أتت كزلزال ليدمر بها عمري، وكل أحلامي التي بنيتها طوبة ... طوبه، تضيع الآن وبلمح البصر، وأنا لا زلتُ فتاة صغيرة وقاصر، لا يتعدى عمري الثانية عشر بعد. !!

لماذا يفعل بي ذلك. ؟؟

لماذا اختارني أنا بالذات .... وأمامه الملاين من البشر. ؟؟

تابعتُ معه بصمت مجبرة مع الخوف المتقطع الأنفاس، أرتعد من الداخل والخارج ودموعي تكرج هي الأخرى بصمت، مخنوقة وتخنقني معها ولا أستطيع أن أسمعه صوت بكائي وتنحيبي فيعرف نقطة ضعفي وهشاشة قوتي، أسأل نفسي لماذا لم أجرأ أن أحدثُ أحد عنه، حتى هذا الوقت وتركته يتمادى في اختراعاته الكاذبة الملفقة، من أين يأتي بها ويسمم بها أفكاري؟

ليس بوسعي أن أقول لهم وأخبرهم بكل شيء عنه، هو جواب واحد كان يأتيني، ولا يوجد غيره، كي لا أصل إلى ما وصلت إليه أمينة، كنت مرعوبة من نهاية أمينة، ولا أعرف لماذا تأخذني الأفكار لتضع نهايتي إلى جانب نهايتها التي لم أحبها أبدًا، هو يسيطر على عقلي المشوش منذ البداية ويشطح به، يأخذه حيث يريد، من بداية

جنوح خيالي الواسع الرحب بمساحات من فضاء اللاوعي الذي يبحث ويستقطب ويستقبل كرادار كل الذبذبات الشاردة والواردة من عقلي المتمرد إلى بعض العقول البشرية القريبة والبعيدة عني، التي تملك قدرة عالية على إرسال الردود لتلك الإشارات للشوارد الإيجابية والسلبية السابحة بفضاء الروحانيات، تلتقط همس الأرواح لتندمج معها، بذلك هو استطاع أن يهيمن ويسيطر على كتلة النسج المملوء المصنوع منها المخ، والمختلطة بالخيال والوهم الذي يسكنني. ؟؟مؤكد هو استغل ضعفي وشفافية روحي وهشاشة حجمي الصغير، وصاغ تلك الأقصوصة ليفرض سيطرته علي بشكل مضمون يسحبني ويدمرني بالوقت المناسب .... أعود لأسأل نفسي في كل محنة تخنقني، أسأل ذات الأسئلة المملة أصبحت والمكررة دائمًا.

من هو ليسيطر عليَّ ويفعل كل ذلك بي، وبثقة يتكلم معي ولا شيء يخجله هذا الملعون!؟

نفس الأجوبة تأتيني بسؤال وليس جواب: هو صوت أسمعه يخبرني بهذه الأخبار عن حياتي، قد لا يكون له وجود حقيقي، ولا وجود خيال له، قد يكون نسيجٌ لشخص وهمي أخترعه خيالي المريض، ولا يملك أي كيان للجسد والروح مثلنا، لو أستطيع لمسه لأتحقق منه وأتأكد من وجوده مهما حاولت لا أستطيع ... هو ... هو .... تعبتُ من هذا الهو. !!هو صوت .... صوت فقط ... مجرد صوت لا أكثر ولا أقل، صوت لوهم افتراضي، لا يمكنني تصديقه أو الاقتناع بما يفعله، وهو يراقبني، كأنه يقرأ أفكاري، رسائل تصله مع ذبذبات شاردة من عقلي يستقبلها قبل أن تصل لفكري ، يستقبلها رسائل من عقلي الباطن. كل هذا الكلام الكثير من التحليل والتنقيب عن الأسباب لا تهم بشيء، فأنا جبانة وصغيرة على كل هذا. يعود ليثبت لي بالدليل القاطع أن أهلي ليسوا أهلي الحقيقين، وأنه يعرف من هو والدي الحقيقي، ومن هي أمي، وأيضًا يعرف نسبي العائلي وأسم أبي ويقول: صدقيني يا صغيرتي أن ما أقوله لك هو الحقيقة كاملة ولم أكذب عليك بشيء أبدًا صدقيني.

اتبعيني يا صغيرة، لا لشيء، فقط لتعرفي الحقيقة الكاملة وابنة من تكوني. يعود ليصعقني بكلامه هذا، يعود ويردده بثقة وبصوته الأجش المقطوع الأنفاس، وأحتار مع نفسي، كيف يستطيع هذا الذي لا أعرف تصنيف له أن يفعل كل ذلك بي. ؟؟أصبح من حقي ومباح لي أن أطلق عليه أي اسم أختاره وبما يليق به وبتفاهته التي لا تنتهي، أن يقلب حياتي رأسً على عقب ويسيربي لأصل معه إلى ما يريد وأنا أتبعه بغباء، هذا هو المستحيل بعينه. !! صورة أخرى ألمحه فيها يأتي إليَّ كرجل هلامي نسجته روحي

المتعبة وهي تتحدى الوهم باليقين، خرج لي بدون جسد، بشكله الهلامي المتزحلق، لا يمكن مسكه باليد يتزحلق كالهواء اللزج الثقيل الوزن، يُظهر لي مع فكري المتعب ويعود ليتماهى بالفضاء ويختفي من جديد. !!هذه هي حكايتي منذ كنت طفلة، هكذا عرفتُ فيما بعد وبالشكل الافتراضي، أن الحدس والتخاطر، ينتقل إليَّ عن طريق شخص وهمي يأتي ليخبرني كل التفاصيل عن حياة لا أعرفها ولا أستطيع تخيلها، وأنني عشتها بزمنٍ مضى، ولكثرة الشحنات المسكونة بداخل جسدي والمتكون منها تفاصيل غريبة تلتقط من الفضاء تلك الذبذبات الشاردة والباحثة عن روح شاردة وهائمة في الفضاء مثلها، عرفت كيف تسلك طريقها لتتوصل إلى معرفة ما يدوحولي، من كمية القلق والرعب الكبيرة التي تسكن نفسي الضعيفة، خائفة من تحقيق تلك النبوءة، فأتوه وأضيع، ولا أعرف من هم أهلي وابنة من أكون. ؟؟؟

هي كارثة وحق السماء، لن أعرف الخروج منها مهما حاولت ....تابعني هذا الإحساس وكاد يرهقني، حتى أصبحتُ أشعر كأنني شريدة أعيش مع عائلة غريبة عني، ريثما ألتقي بأهلي الحقيقين، وبرجع غريب تعود الأسئلة تجتاح فكري، وتسأل كيف وصلت إلى هذه العائلة لأعيش كفرد من أفرادها والأقرب إلى قلوبهم، ومن المعززين المكرمين عندهم ، وكلمتي عندهم لا ترد، وطلباتي كلها تنفذ قبل طلبات أخوتي الذكور، حبهم لي أشعره دائما يملأ حياتي وأعيش به، لم يبدر منهم تصرف أي تصرف ولو صغير، تصرف واحد ولو بالخطأ يشعرني بأني لستُ ابنتهم، ولم يحدث أن ميزوا بمعاملتهم أحد من أخوتي عليَّ بالدلال أو المحبة أو حتى بالمزح، دائمًا كنت ولا زلتُ طفلتهم المدللة، لم يحدث ذلك ولا لمرة واحدة لأشك ولو للحظة بأنهم ليسوا أهلي. عند تجاوز خطوات العمر بي وأنا أكبر بعضً من السنين، وكنتُ قد ازدتُ نضجًا، عدتُ تدريجيًا أفكر بنفس الموضوع، وهو يأخذ كل المساحة من وقتي وأنا أترقب . وألاحظ . وأنتظر أي تصرف يصدر عن أمي وأبي يعطيني إشارة أعرف من خلالها بأني لستُ ابنتهم فعلاً، أهملتُ دراستي، وأشغلتُ نفسي من جديد بتصفح الكتيبات الصغيرة التي تتحدث عن توارد الخواطر، أوذاك النوع العالي من الحواس التي أسمع عنها، ولكن مفهومي العام عنها قد تغير مع تغير عمري، أصبحت أجزم أن عمري الزمني أكبر بكثير من عمري الحقيقي الذي تخبرني عنه أمي، وعندما أسألها، يأتيني ردها: بأني لا زلتُ صغيرة، وبأني أصغر بكثير مما أتوقع، فأثور معترضة عليها، غاضبة منها، لم يقنعني كلامها ولا مرة، وهي تقول لي ذلك. دائمًا يكون ردي عليها بغضبٍ وهي مستغربة من كلامي وأنا أقول لها: أنا أكبر من ذلك بكثير يا أمي، هناك

علوم أعرفها بدون أن أتعلمها، وإن أكثرمن هم بالعمر الذي تذكرينه لي لا يستطيعون أن يفكروا مجرد تفكيربما أفكر، ولا يعرفون ما أعرف وأفهم، لقد أصبحتُ صبية يا أمي أضجُ أنوثة، ألا ترين ذلك ظاهرٌعليَّ؟

تضحك مني، ألمح على وجهها ملامح من الدهشة للمفاجأة لِمَا أقوله لها، من خلال تصرفاتي وكلامي، ومع ذلك تعود لتضمني إليها وتقول: لنقل أنك سابقة لعمرك وعصرك يا صغيرتي وأميرتي الجميلة. أرد عليها قائلة: أمي أنتِ تهزئين بي، ولستِ مقتنعة بما تقولينه، وتضحكين عليَّ. ؟؟

تعود لتضمني من جديد وأنا أسحب نفسي من بيد يديها متمرد ورافضة أسلوبها، أشعر كأنها تضحك مني ولكنها بذكائها تفهمني، فتقترب مني أكثروتنظر بوجهي لتقرأ نظرات عيوني وهي تقول: أجل يا ابنتي أعرف أنكِ تختلفين عن أقرانك، وعن كل من هم بعمرك، لذكائك وفراستك وخفة روحك ولطافتك أيضًا، فأنتشي سعادة مزهوة بكلامها، تغمرني فرحة لا توصف، أشعر أني نلت ما أستحقه، باعترافٍ منها بأني مميزة عن الجميع بالنسبة لأمي على الأقل، وهذا جُلَّ ما يهمني ويجلب لي السعادة التي أنشدها. يدفعني هذا الاعتراف والمديح الغامر منها، أن ألهث وراء بعض من الكتب، أقراءها لأعرف المصدر الحقيقي لذلك الشيء الذي يلازمني من مدة طويلة، وربما جهلي بعلوم كثيرة، يجعلني أتوه عن المسار الصحيح لهذا الطريق الذي بدأت أنشدُ إليه تدريجيًا مع الأيام، وأسير به مستمتعة وخائفة بنفس الوقت، واختلاطات كثيرة لمشاعر غريبة بين ما يحدث ، ولا زال هاجسي. !!ذاكرتي الطفولية لا تنسى أبدًا ما مرَّ بها، منذ كنت طفلة وأنا أربط الأشياء والأشخاص ببعضها البعض، وأتوهم أن أحد أعرفه يحاول الاقتراب مني والاعتداء علي. أصرخ مستنجدة بأمي هي الوحيدة التي باستطاعتها أن تحميني، وحين تأتي إليَّ راكضة تضمني بحنانها، أتمسك بثوبها وأخبئ وجهي، أدفنه بحضن صدرها الدافئ أحتمي به، أرجوها بتوسل ألا تتركني لذلك الذئب البشري المسمى أبي وكأنه كابوس سينهي حياتي. !!من أين تأتيني كل هذه التخيلات؟ بتتابع زمني وتسلسل لأحداث معينة، أخبرني ذلك القرين، أن هذه العائلة التي أسكن معها ليست هي عائلتي، عند ذلك المنحى من التعرج الذي سمعته بدأتُ أرى كوابيس، وأصحو مرعوبة أرتعد خوفًا، أنه هو من يريد إذًا اغتصابي، ويأتي إليَّ ليلاً يتقمص شكل وشخصية أبي، ولا أحد غيره يمكنه أن يفعل ذلك بي ويلاحقني. هو الشخص الوحيد الذي يتبعني، وعندما أعود بذاكرتي إلى الوراء، إلى قصة صديقتي سلمى وما حدث معها، أزداد يقينًا أنها التابعة التي حكت لي أمي عنها. أو القرين، هما

من يلاحقني منذ مدة، تَقمصَ شكل أبي ويحاول اغتصابي. يقنعني مع بزوغ الفجر أنه ليس أبي، فأصحو مذعورة أصرخ، تأتي أمي راكضة تجلس بقربي كعادتها الفها لأحتمي بها وأطمئن، هي وحدها من يستطيع حمايتي، وانا أهربَ منه وأبكي خائفة أرتعد.ما كنت أراه من خيالات بأحلامي إن كانت حُلمٌ، أم كابوس، هي بالنهاية أمورٌ لحدث غريب، لا يمكن النقاش به أو الحديث عنه لأي إنسان، لا يمكن لأحدٍ غيري أن يعرف ذلك الشعور المخيف والإحساس المتعب الذي يجعلني أرتعش من الخوف وأتصبب عرقًا...شخص غير مرئي وغير محسوس، يلاحقني في يقظتي، يرافقني كظلي، بليلي ونهاري وبكل خطواتي، لا أستطيع أن أتبينه بوضح النهار ولا في ظلمة الليل، لأحفظ ملامحه وأصفه لأمي على الأقل كي تصدقني عندما اقرر إخبارها بكل ما يحدثُ معي، أعرف أنه يراقبني من بعيد، حين أكون مع أمي وأبي وأخوتي، يعرف أنني أكون قوية بهم، فلا يعود ويظهر لي وأنا بينهم وموجودة معهم ، عند ذلك يتركني هذا الرجل الهلامي، ويرحل معاتبًا. كيف أصدقه واترك هذه العائلة التي أسميها أهلي، ويسألني كيف أبقى معهم إلى الآن، برأيه يجب عليَّ أن أتركهم فور معرفتي بالحقيقة، ليأخذني معه ويسمم ما بقي من أفكاري، والقناعات التي تسكن عقلي الصغير. يشتاق مرافقتي وأن يلازمني عندما أكون بمفردي في غرفتي أو في طريق ذهابي إلى مدرستي .

يحكي لي قصصه الكثيرة عن حيوات لا أعرفها، ويشككني بأمي وأبي دائمًا، وكلما سنحت له الظروف التي يختلقها، يكرر لي بأني لقيطة. وأحيانًا شريدة، وأُكذِبهُ . وأبكي . وأنتحب . ويربت على كتفي، إذًا هو موجود، أشعر بيده تلامسني كهواء لزج، لزوجته سميكة وغير مستحبة، أتلفت حولي لأتعرف عليه أبحث عنه طالما أنه قريب مني إلى هذه الدرجة أتوه عنها. أين هو، لا أجد أحدً، وأدور حول نفسي في دوامة حلقاتها فارغة ليس لها ثوابت ولا أبعاد لأرتكز عليها، لذلك سميت نفسي مع الأيام وأنا أتابعه (بالشريدة الضائعة ، أو الممسوسة) لمواصلتي التنقل من مكان لمكان وأنا أتبعه وأمشي وراءه كأني مقيدة بسلاسل تجرني إليه لأصل إلى الحقيقة التي يحدثني عنها، برغم أن الشكوك بدأت تدخل فكري، أرفض لمسه لي، أبتعد عنه هربًا من سحر تلك المادة السريعة الالتصاق، برائحتها الغريبة، تشبه رائحة لأجساد غريبة غير أُنسية، غير بشرية، تتحرك بهلامية وبشكل دوائر هوائية تلف المكان حولي، ليس لها هوية لأي مسمى، لا أسم لها لتنتسب له، تتزحلق مقتربة ومبتعدة بخفة، أهرب منها بكل الاتجاهات الأربعة المختلفة أصبحت أتنقل، حتى كان ذلك المساء ليوم

خرجتُ فيه من البيت كعادتي دون أن يراني أحد تسللت فتحت باب المنزل وخرجت عندما سَمعتُ أن أحدًا يناديني لمساعدة إنسانية، وانتابني ضيق بالتنفس، شعرتُ بالاختناق خرجتُ من المنزل لا أعي على شيء، ولا إلى أين أذهب، وكلما أبتعد أشعر أن خطوات ورائي تتبعني بدقة وسلاسة عجيبة، كنت هاربة وشريدة ووحيدة ألفُ هذه الحياة، لما وراء الطبيعة عندما دخلت ذلك النفق المظلم، هاربة من تلك الوحوش الآدمية، وكلاب تنبح وهي تتبعني، وشيء آخر يتابع أثري وأنا أتلفت حولي يمينًا ويسارًا إلى أن أُنهكت قواي وتلاشتْ، التجأتُ لنفق رأيته أمامي، كان الوحيد لأختبئ فيه ربثما أجد مكان أكثر أمانًا من المكان الذي أتواجد فيه، أسرعت بخطواتي أمدها وهي تأبى أن تساعدني كأنها ليست لي، تتعثر بي وأنا أهرول، تارة من التعب، وأخرى من الصدمة، لا أصدق أنني وصلتُ لذلك المكان وأنا بتلك الحالة المخزية التي كنتُ عليها، دخلتُ بمتاهة بين العتمة والظلمة، بين سواد وأشباح تتراء لي، ضاعت مني ملامح المكان الذي ألفتهُ حولي، ولم أتبين لأول وهلة أن هناك أشياء تتحرك، رمادية اللون أو ترابية، هكذا تراها عيوني المثقلة بالإرهاق، لمحتُ على بعدٍ قليل مني، بشيء غامض غير مرئي وغير محسوس لرؤية العين البصرية، ولكنه مرئي برؤية الإحساس كمادة موجودة وأراها كظلي تتحرك وهي تلامسني، أحسه كأن شيء يشاركني كالظل الذي يختفي عند غياب الشمس ويتوارى. إنه هو ... هو دون أدنى شك عرفته الآن، بدأ يمشي مع خطواتي يتابع أثري ضمن مساري الذاتي قبل تَتَبُعهُ لصوتَ خطواتي المسموع وقعها.

أخذت أبحث بنظراتي التائهة ألفُ بها الاتجاهات الأربعة للمكان ولعدة مرات، لأكتشف المكان حولي بدقة من جديد وأحفظه تمامًا بكل تفاصيله الدقيقة لأستطيع العودة إليه فيما بعد وأتأكد أن ما أنا به ليس حلم وليس وهم من نسج خيالي الواسع الرحب، ولأحكي لأمي ذات يوم كل التفاصيل الدقيقة التي امرُبها الآن ونأتي معًا إلى هذا المكان. !! قلبي منقبض، ركبي ترتعد، أشعر أنني سأُرجَّع كل ما بجوفي من مخاض السحر الأسود الذي يلبسني، أكتم أنفاسي المتلاحقة من الخوف والرعب، أصغي لأسمع حفيف ذلك الشيء المرعب. أشعره وقد أصبح شديد الاقتراب مني، أنفاسه اللزجة تغلف وجهي، أشعره وهو ينفس عليَّ شيء كريه، وحينما وضعتُ يدي على أنفي لأفصل رائحة أنفاسه النتنه، أحسسته يحاول أن يلامسني وهو يقترب، كلما أقترب أكثر، أشعر بحفيفه ورائحة نتنة مقرفة خاصة تأتي منه تؤذيني، أشمها لا مفر لي، فيزداد فزعي وقرفي، أرتعد من الخوف، تصتك أسناني. أُسرع .. أمد الخطوات

تلو الخطوات وأنا أراقب بسمعي تلك الهسهسة الخافتة القادمة منه نحوي، أشد خطواتي أكثر... أُسرع بخفة أكثر من ذي قبل. ها قد بَعُدت المسافة بيني وبينه طويلة أصبحت، نجحتُ أخيرًا في الجري وابتعدت عنه الحمد لله، أخذتُ اتابع الجري وأنا ألهث وأنفاسي تسحق صدري ألمًا حتى بدا لي أخيرًا نور خافت ينبعث من خلال فتحة ضيقة المساحة، ظهرت أمامي مباشرة بنهاية النفق، أخذتُ أركض لاهثة لأصل إليها وأنا أسمع خطوات خلفي لها صوت بعيد نوعًا ما كأنها تتبع أثري، أشعرها أحيانًا تركض ورائي وتقترب، كأنها خلفي تسرع معي في الركض وعندما أتوقف تتوقف هي الأخرى، وعندما شارفتُ على الاقتراب من تلك الفتحة، دفعتُ نفسي وبكلتا جسدي الصغير المنهك إليها، لأرى أمامي مساحة واسعة لأرض جرداء، إلاَّ من بعض القوارض هنا وهناك تحوم حول المجارير المملوءة بالأوساخ، ورائحة كريهة تقطع الأنفاس، كل الروائح تختلط وتنطلق من بداية هذا النفق إلى نهايته وخارجه، لا زالت تلك الرائحة النتنة المقرفة تدلع لها النفس لدرجة أني كدتُ أُرجِّع من جديد كل ما في جوفي الفارغ أساسًا من الطعام والشراب، ماذا بوسعي أن أفعل وأنا وحدي بهذا المكان المرعب. ؟ليس بإمكاني فعل أي شيء، سوى وضع يدي على أنفي وفمي لأمنع نفسي من استنشاق هذه الرائحة الكريهة وأقطع أنفاسي كي لا يسمعها ويتوه عني، أخذت أتمهل بخطواتي قليلاً، أضع قدمي بترقب وحذر شديد كي لا تأتي أحدُها على بعض القوارض وصراصير الليل، أو الأفاعي أو الجرذان الشاردة فتأكل من قدمي الصغير قطعة وأتألم ولا أستطيع المتابعة ولا حتى مساعدة نفسي للخروج من تلك الحفر من هذا الفلاء الواسع، .... أين تراها أمي الآن؟

ألا تشعر بغيابي؟ ألا تفتقدني وتبحث عني، وتسأل أين أكون ...؟؟

ألم تتفقدني .؟

ألا ترى سرير فارغ ولستُ به أغفوا وأنام كما تعودت أن تراني فيه كل ليلة؟

أين أنتِ يا أمي .... وأنتَ يا أبي، كم أنا محتاجة لكم بهذه المحنة. !!

أخذتُ انتقل على أطراف أصابعي واحدة تلو الأخرى لأخرج من بين تلك الأوساخ وأتخلص من هذه المجموعة الكثيرة من الجرذان التي أخذت تقترب مني وهي تنط حولي مقتربة أكثر فرحة بفريستها، ها قد وجدت ما تبحث عنه، وجدت قوتها اليومي، أنط أنا الأخرى معها أحاول الابتعاد عنها والخروج من هذا المستنقع المقرف، ألمحها بين شعاع لليل ضئيل تحاول الاقتراب مني جاهدة بإصرار، تتجه نحوي مسرعة وكأنها عثرت على فريستها من جديد بعد أن أضاعتها، ها هي تقترب لتنقضُ على رجلي،

انتفضتُ مذعورة لا ألوي على شيء ولا أي طريق أسلك، بدأت أركض من جديد باتجاه طريق جديد، كأنه فتح أمامي فجأة كطاقة نجاة جاء من السماء التي تراني وترعاني لا محالة، فالخوف لم يترك لي امكانية التوقف والهدوء الذي كنت عليه من دقائق قليلة، فزادت سرعتي المتباطئة ... أركض ... وأركض، ويزداد قرفي ورعبي، ونسيت تمامًا من يلاحقني ومن أوصلني لهذا المكان وهو يتبع خطواتي وهنا بدأت أشعر أن قدمي انشكت وأخذت تتعثر بشيء صلب قد يكون سلسال أو جنزير لا أعرف ماهية ذلك الشيء الذي كان سببً لأتوقف مع خطواتي المتعثرة، فجأة رأيتُ هالة ضخمة لهيئة رجل كشبح ملفوف بوشاح أسود هلامي يخفي به نفسه عمن حولي وعني تحديدًا، ربما لم أعد أميز ما هو هذا الشيء ولكني أسميته وقتها بالرجل الهلامي السريع الاختفاء، هكذا كان تخيلي لشكله إن كان له شكل أصلاً، وكعادتي أتمرد بعد خضوع ورعب. !!ماهي إلا ثوانٍ قصيرة، وإذا بيد قوية تمتد نحوي وتمسك بي، شدتني تلك اليد من خصري، أخذت تسحبني رويدًا رويدًا وببطيء شديد، إلى أن اجتازت بي ذلك المستنقع الذي شارفتُ على الغوص فيه بكل جسدي، من خوفي فقدتُ وعي من جديد، خالجني شعور عميق بعمق درجة اغمائي أنني بعالم آخر، عالم يختلف تمامًا عن عالمي، لا أستطيع وصفه مهما اجتهدت، بعد ذلك بلحظات عاد إليَّ وعيِّ أو بعض من الوقت مضى بطوله أو بقصره لا أعرف وقتها ما حصل حولي من تحولات لأغمائي. كل ما عرفته بعد ذلك أنني عدتُ إلي تدريجيًا إلى وعي، بدأتُ أركز بتفكيري بالمكان الذي أنا به، ببطء عاد شعوري من جديد بتلك اليد التي تمسكني وأنها لازالت على حالها كما كانت متمسكة بي ولا تريد افلاتي، عندها بدأتُ أسمع صوته هذه المرة أجل إنه صوته لا يوجد غيره يتبعني ويمسك بي، جاءني ذلك الصوت بنداء يحثني على الجري السريع لأتخلص منه ولكنني فقدت قواي من جديد ولم أستطيع المتابعة ولا الوقوف، ولم أعد أرى أي شيء بجانبي لأساعد نفسي على الوقوف واتابعه كما طلب، أخذتُ أبحث عن شيء لأستند إليه.أحسستُ أني محبطة تمامًا، لا قوة لي على المتابعة والوقوف خارت قواي كليًا هذه المرة، خاصة أنني لم أجد شيء لأستند عليه، التقيته أخيرًا، ها أنا أصبحتُ أمامه وجه لوجه، بإدراكه لي وجلوسه قريبا مني، شاهدته وغشاوة على عيوني تحجب عني الرؤية والإحساس به وبشكله الكامل وكأنه شبح تمثله مجموعة أدخنة لسجائر كثير تتماوج أمامي تعطني شكله من بين تلك الأدخنة تتراء لي، غاب عني الإحساس بمن حولي من المفاجأة، صعقني ما رأيت، أهو شبح لجنّي أراه أم هو أُنسي.؟؟هززتُ رأسي .... أتراني أهلوس أو أتخيل؟ ماذا تراني

أرى.؟ أهي أشباحً محجوب وراء تلك الموجات والأعمدة من الدخان هو جنيٌ؟

شعرت بموجة برد شديدة تدخل جميع أوصالي، صكت أسناني ببعضها، شيء واحدٌ فقط أصبحتُ متأكدة منه، هو شخص ليس وهمي أبدًا، وليس من نسج خيالي ولستُ أحلم، هذا الشخص هو ذاته الذي كان يجرني، ذات الشخص الذي يلاحقني، أو أنني متوهمة بأنه هو ذاته الذي كان يلاحقني، أو أنه إنسان آخر لا يمتُ إلي ذلك الشخص بأية صلة، أم إنهما أثنين بواحد ... لا .... لا. !!

من خوفي بدأت تختلط أفكاري، أربط بين الاثنين معًا وأتوه من جديد، هناك أن أمرًا غير عادي أعيشه هنا بهذا المكان الغريب، وإن الذي يمسك بيدي ويجرني هو شبحٌ أو روحُ آتية من عالم آخر، أم هو جنيِ. ؟؟

لا أستطيع التميز ولا أستطيع الإفلات منه ولا النظر إليه، ولا الالتفات ورائي لأرى ملامحه الدقيقة من تحت ذلك الوشاح الأسود الذي يلفه بالغموض، محتارة كنت ماذا أفعل لأرى وجهه وأستبين ملامحه ولكن جرأتي كانت قليلة، لكي أقوم بهذا التصرف، أن ألتفت ورائي لأراه، صعب عليَّ، وترعبني حقيقته معرفتي له أكثر من تجاهلي لمعرفة شكله، لو فعلت وشاهدته كحقيقة لها وجود ستكون احتمالات التوقع لما يحدث لي مفاجئ سيكون كصدمة كبيرة، قد تؤدي بحياتي إلى الأبد، وغبتُ مرة ثانية عن الوعي كأني بمتاهة لا أعرف الخروج منها فأهرب بشعوري إلى منطقة اللاوعي، عندها ذلك بدأ شعوري ينقلني لعالم آخر مليء بالأدخنة والهلوسة لكلام غير مفهوم وأشباح تتراقص أمامي ووهج لنيران كثيفة أخذت تتماوج من بين الأدخنة مع الوهن بداخلي، تتلون بألوان غريبة مفزعة، لكنها موسومة بخيوط عنكبوتية تتمايل بألوانها الرمادية بين السواد بكل الاتجاهات كأنها بقايا من نار متأججة كانت وأصبحت مخلفات لرماد كاد يشتعل من جديد. ارتابتْ نفسي وهي تتلهف لجواب شافٍ، لا أحد يسعفني ويجيب. مستفهمة لا زلتُ، ومتلهفة عن جواب يشفي فضولي لأسئلة كثيرة أنتظرها، لأفك تلك الرموز الغريبة، عن ذلك الغموض وخاصة تلك الازدواجية لطريقة تفكيري السريعة التغير من حالة لحالة. !!يظل السؤال الغير واضح للرؤية أمامي، هل هما خيال لاثنين معًا.؟ أم هو شخص واحد يتابعني.؟؟شخصان هما... شخص واحد. ؟؟ أم إني واهمة. ؟؟

أم هو نفسه الرجل الهلامي، هاتفي السابق، وقريني الذي يرافقني عندما أحتاج وجوده يأتي لينقذني من موقف محرج أكون فيه. ؟؟ تذكرت شيء مهم كنت أسمع به سابقًا ... هناك شيء اسمه التخاطر أجل التخاطر عن بعد.. أجل تذكرت. ؟؟

هي إذًا أرواح شاردة تبحث عن شريك ... روح من هي تلك التي تلاحقني. ؟؟ روح من هي ... ولماذا تتبعني أنا بالذات. ؟؟

من الأحياء هي، أم من الأموات، أصبحتُ ممسوسة بروح أحدهم. ؟؟

مهما كانت الحقيقة تتلاعب بي، فهي مفزعة، ومهما يكن هذا أوذاك فإنه موجود حولي أو بداخلي كمس شيطاني يلاعبني حتمًا، تأكدتُ أن أحدً يتبع ذبذبات جسدي كرادار، وهي التي تشد وتشذب الأرواح التي تسرح هائمة تبحث عن روح أخرى شاردة قد تلتقي فيها أرواح لأموات، مع أرواح لأحياء، كما جاء بحديث عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " الأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائتلف وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَف _ صحيح بخاري) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأخرى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذلك لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)

هي الأرواح إذًا تحمل تلك الذبذبات تبحث عن شقها الثاني الموجود بالحياة، أو أحد الأموات المتوفي ، تهيم روحه بفضاء مع الأروح، تبحث لتلتقط مكان روح المناسبة لها، تلتحم مع جسد آخر لصبح اثنين أو ثلاثة هكذا أخذتُ أفسر ما يحدث لي؟ قد يكون هذا هو التحليل الأصح لتلك الازدواجية التي تعترضني وأعيش تفاصيلها بغرابة، فأنا لا أفهم ولا أستطيع استيعاب ما يحدث لي ولا أجد أي تفسير غير ما ذكرت، وقد تكون كل تحليلات واستنتاجاتي خاطئة ولا صحة لكل ما ذكرته واستنتجته. شيء واحد أصبحت مقتنعة به، أن كل ما يحدث معي، وما أفهمه أن ذلك المارد يقتفي أثري عبر انتقال الأفكار من شخص لآخر، وهي تعبرني وأنا بينهما أنجذب إليهم بصمت مع خط سيرهم بدون إذن وتصريح بالموافقة مني. ؟؟

أم أنني مع جنون العاصفة بداخلي من الرفض والقبول يهتف قلبي لتخرج تلك الشعلات وأتخلص من كل هذا التجسيد لتخاطرلا أفهمه يمارسه البعض، يحاولون التواصل دون وسيط بشري بل باستخدام وسيط فيزيقي أو مادي أو روحاني. أم هي ببساطة شديدة ظاهرة من تلك الظواهر الخارقة لقراءة الأفكار كما يطلق عليها العامة.

أهناك أحد يستقصي ذبذبات أفكاري وجسدي ويبدأ برصدهم ما بين أفكاري وخطواتي فهي التي تتحرك لترشدهم عن مكاني وزماني. ؟؟

ولكن لماذا أنا. ؟؟

أكاد أجن ولا أصل إلى نتيجة مقنعة، سوى أنها ظاهرة كتلك الظواهر التي تذهب

بالعلماء دائماً إلى طرفي نقيض إما أن يؤيدها البعض في حماس، أو يرفضها البعض في إصرار أين منهما هي ... أي منهما أنا أعيش. ؟؟وأين سأقف بينهما لأثبت خطواتي المتعلقة بهواء لا قاعدة له. أؤيد كل ما يحدث لي .أم أرفضه كما يفعل البعض. ؟؟أعود لأبحث وأتعمق وأفهم ... ماذا أفعل. ؟؟ماذا تراني أفعل وأنا أستغرب ما يحدث لي. !!

عندما عدتُ لوعي التام هذه المرة، حاولت جاهدة أن أتخلص من سيطرت تلك الأفكارومن ذلك الرباط الذي يضغط على نفسي ويقطع أنفاسي ويلف بيده القوية خصري وأنا أصرخ صرخات مكتومة ليس لها صوت ولا أسمع لها صدى، هل كل ذلك وهم أم إنه حلم. ؟؟ يعاودني الخوف الذي لا يزال يسكنني كلما عاودت الهروب من تلك الأشياء التي تسيطر عليَّ وليس لها وجود إلا بعالمي الخاص. !!

عاد ذلك الإحساس يمنعني من التملص ولو لثانية واحدة لأَخذ بعضًا من الشهيق أو الزفير، أو الاثنين معا لمعاوده التنفس، توقف تنفسي كليًا، لا أستطيع الحركة لكثرة شعوري بالاختناق وشدة حاجتي لهواء نظيف صافي يدخل رئتي ينعشها وينعش قلبي الميت من كل شيء، لم تعد تفلح معي أي محاولة لأي حركة مهما فعلت للخروج من هذا الشعور. وازداد ضغط ذلك الجسد الكريه عليَّ بكتلته الضخمة، على كتلتي الجسدية الصغيرة المكومة بكل أبعادها الأربعة ملفوفة من الرأس مع اليدين والرجلين لأصبح خماسية الأبعاد وليس رباعية فرأسي هو المحرك الأساسي لأطرافي الأربعة، مع تلك اللفة المكومة التي حصل عليها جسدي الضعيف، أصبحتُ كروية الشكل وضئيلة ... ضئيلة لدرجة أنني لم أعد أفهم ما يحدث معي، أخذ يزداد بكل ثقله الافتراضي بضغطه عليَّ ليمنعني من الحركة بكل أبعاده وقدرته هو الآخر، لأكون سجينة داخل دوامة افتراضية لا زال يرسمها نسيج دخانه الكثيف، الذي بدأ يلفني معه، يأخذني لفضاء بعيد، أفقد الإحساس بالمكان والزمان. !!عاودني إحساس الاختناق من جديد، أخذت أتمتم بقلبي سرًا، بكل ما أعرفه وتعلمته من آيات قرآنية كانت ترددها أمي ببعض الأزمات التي نمر بها، لتنزاح عني تلك الكتلة الهائلة التي تزداد بضغطها على جسدي وتقطع أنفاسي، وبما أن صوتي لن يخرج من حلقي أبدًا وفمي مطبق ويرتعش من الخوف ولا أستطيع الصراخ للتخلص من هذا الجسد، كل ذلك يعني أن لاخلاص لي والموت محدقً بي لا محالة، فبدأ إحساسي به يخنقني من جديد، وأخذت أتململ وأعارك من جديد، أصارع بكلتا يدي وجزعي ورجلي وبكل قطعة من جسدي أستطيع فيها الحراك حاولت دون جدوى ولم أتمكن من الإفلات من قبضة هذا الشخص الغريب وهو يطوقني ويكتم على أنفاسي، رفعني فجأة ثم

وقعتُ أرضًا متلاشية حتى النهاية، أخذتُ خطواتي محاولة الهروب مرة ثانية .... وثالثة ..... ورابعة، أتناقل مع جسدي بإخفاق مرعوبة مما يَحصلُ لي عدت وتهاويت من جديد لا أعي أين أنا بعد أن تم سحبني وجري بيد ذلك الشخص الذي تركني أخيرًا لمجرد أن سمع أصوات غريبة تقترب، تركني وأخذ نفسه هاربا يتوكأ على عكازه يتلفتْ يمينًا ويسارًا، يبدو لي إنه يعرج وكأنه برجل واحدة. !! لا أعرف كم من الوقت مرَّ عليَّ وأنا على تلك الحالة بين الإغماء والصحيان، بين الهروب من عقلي الواعي اللاوعي لأختبئ بعقلي الباطن بعد أن تصالحتُ معه مجبرة، بقيتُ هكذا مدة لا بأس بها إلى أن أوصلتني أيقظتني من غيبوبتي.تلك الهطول الكثيرة من الأمطار لأستيقظ من غيبوبتي الأخيرة، مرت تلك الهطول المطرية كأنها سحابة وحيدة معبئة بالغيث لتنقذني، كأنها تقصد المرور فوق هذه البقعة خاصة، مرسلة أمطارها الكثيفة والغزيرة، كأنها كانت تنتظر مكان يحتاجها لتَهطل فوقه فاختارت تلك البقعة من الأرض الجرداء حولها ليكون هطولها سببًا لهروبه، وتنقذني مما أنا به.

تلك الأصوات لآتية من السماء على امتداد تلك البقعة من الارض هي التي جعلت ذلك الشخص الغريب يبتعد، مع صوت الرعد والبرق وهو يبشر بهطول المطر، هو الآخر ارتعد خوفًا فولى هاربا، تركني لمصير لا أعرف نهايته، ولا إلى أين ستأخذني تلك الخطوات الغامضة الى طريق آخر غامض ومبهم، قد تكون فيه كل التوقعات لما وراء الحواس والطبيعة وهذا ما أنشده وابحث عنه لأعيش ممارسته حقيقة. فجأة تعطلت الخطوات التي كانت ورائي توقفت عن السير بفعل فاعل، ولم يبقي لدى مريم ما يحميها بعد أن غادرها ذلك القرين، الحاسة الغريبة التي كانت تسكنها كل وهلة وغفلة من ذاتها المريضة تركتها أيضًا، عادت وحيدة كما كانت بطريق مظلم مكفهر بالغموض وذلك الشبح الذي كان يتبعها كان يعطيها شيء من الأمان، وها هي الآن تعاود الأنين من الأوجاع المتراكمة، لا تجد لها أي علاج يساعدها على المتابعة، تركها القرين الذي كانت تحس به وتقرفه بذات الوقت، تلك البؤرة والهالة الملتحفة بالسوداء وهي تتبع خطواتها بعد أن أصبحت وحيدة بعالم لا تعرفه ومكان لم تألفه سابقًا، هاربة وشاردة بمتاهة لا تعرف الخروج منها تسترها عباءة الليل والعتمة، تنتظر شروق الشمس، تتنفس من رئة الصباح بصيص من النور تبدأ معه نهار جديد ترافقه الشمس بخطواتها تكشف الحجاب عن عباءة الليل، كعادتها ظلت تنتظر، راودها إحساس أنها تسكن السماء السابعة، وقوس قزح يلف مكانها، يلون الرؤية بين العتمة والظل من بين قطرات المطر الباقية تتناثر من وريقات الشجر حين تمر

به، كأن الكون كله يدور حولها في فضاء من المتواليات، حلقات فضائية ملفوفة بسحب وإعصار مهول ..!!أهي بغيبوبة أم إنها تحلم، هو عالم مخيف، من الأرواح الشاردة بقضاءٍ وفضاء متسع بين السماء والأرض، أم أنها هي الشاردة الوحيدة بين تلك الأرواح، ولازالت في موقعها تُراوح المكان هاربة من رجل يلاحقها ويريد اغتصابها من الحاضرويأخذها إلى الماضي، من تراه أوحى لها بذلك حتى احسته حقيقة وواقع، ضاعت بين الواقع والخيال تتوه شاردة، تعيش متعة الهروب منه، تختبئ وراء الغيبيات التي يتحدثون عنها في الروايات وقصص الرعب وأفلام الأكشن والرعب وحكايات الجدات في ليالي الشتاء المرعبة ..؟؟إنها أصغر من أن تعرف أو تعي كيف تحدد ذلك بعفوية استنتاجاتها المخيفة .. ؟؟؟عادت مريم، متهالكة من جديد، تلملم نفسها المبعثرة، تجرجر ذيول خيبتها وما تبقى من خوفها ممسكة رداءها المتسخ من مياه المستنقع الذي وقعت به وخرجت منه بجهد غريب، تنتظر أن ينتهي هذا الصراع النفسي الساكن بداخلها للحظة خلاص غير متوقعة.

في شرود بين الغيبوبة واليقظة، بدأت تعي موقعها، أين هي، كل ما عرفته وقتها أنها وحيدة كانت مع البرد والخوف يأكل كل ما بداخلها أخذت تلتفت بنظراتها هنا وهناك تبحث عن شجرة أو حائط لبيت قديم، أي شيء تختبئ فيه وتحمي نفسها من تلك العاصفة من الأمطار التي أخذت تتزايد بهطولها، أخيرًا وبعد جهد رأت قنطرة متهالكة لبناء قديم أو بيت ريفي قديم، لا تعرف بالتحديد ما هو بهذه المنطقة، هرولت إليه مسرعة لتستر نفسها قبل أن يفضحه النهار عندما تسطع شمسه مع توقف المطر، لم يعد يهمها شيء سوى البحث عن طريق واحد تسير به ولو قطعت أميال تبحث لتجد أي معالم لبناء حديث تحتمي به، لم يقنعها الحائط الذي هرعت إليه تركته عندما وصلت ورأته منهار وأصبح سكن للجرذان والعناكب والحشرات القارضة كسابقتها، تهرب منهم بمكان لتلتقيهم بمكان آخر. لا تعرف ماذا تفعل وكيف تتصرف، عندما يئست ولم تجد أية طريقة لخلاصها، أخذت تركض في اتجاهات مختلفة وعيونها لا زالت تبحث عن مكان يحميها، يكون أكثر أمانًا مع الخوف الذي يتملك بها، أن أحد من العائلة التي عاشت معها يلحق بها ليعود بها إلى المكان الذي كرهت العيش فيه، من الظلم والحرمان خادمة لا أكثرولا أقل وتقول لنفسها: لا أحد يرأف بي أو يصدق ما يحدث معي كل ليلة بعد أن ينام أهل البيت جميعهم، تتابع مريم وتقول: أتذكر كل هذه الأحداث وأنا أسير متجهة نحو اليمين عند مفرق بسيط لطريق ترابي موحل وتابعتُ سيري وأنا أركض حينًا وأتوقف لأخذ نفسًا عميقًا حينًا

آخر، أخيرًا وجدتُ ممر ضيق بعض الشيء، كأنه فتحة لشارع فرعي وتابعت الجري حتى وصلت إلى مجموعة من البيوت القديمة المتهدم بعضها، تبدو للوهلة الأولى كأنها ملامح لمنطقة أثرية قديمة، يفصل بينها جدار قديم عن الشارع الترابي لذلك الجسر والقنطرة التي تغطي معظمه بقبة من الأحجار المتراكمة والمتهالك بعضها فوق بعض من القِدم، تنبت عليها الحشائش والأعشاب المتسلقة تجتر غذاء منها. تهلل وجهها فرحًا وهي تقول: أخيرًا وجدت مكان أحتمي فيه بعد العذاب الذي مررتُ به، ورأيته حولي هربتُ منه ومن نفسي أولًا، وركنتُ هادئة، تصطك أسناني وقدماي ببعضهما البعض، أخذ جسدي يرتعش من البرد القارص والخوف المفرط، أخذتُ أضم يداي الصغيرتان من التعب، والصقيع الذي جمدني فأصبحت قابلة للكسر بأي لحظة. أفرك بيديَّ حدود تكويني الجسدي، ليسري الدم في عروقي المتجمدة، يبعث فيها الحياة من جديد، ماتت عني منذ بداية هروبي من المنزل الذي كنت أعيش به، عندما ناداني ذلك الصوت يحثني للحاق به ومنذ تلك اللحظة أصبحتُ شريدة أبحث عن نفسي الضائعة منها هويتها الحقيقية، بعد أن أخبرني ذلك الشخص الهلامي أن لي قصة طويلة سيخبرني بها مع الأيام، بشرط أن أسمع منه، أتعاون معه، وآمن به، بعيدًا عن العائلة التي أنتمي اليها حاليًا، وبدأ خيالي يرسم لي من خلال كلامه الغريب كيف يمكن أن تكون تلك العائلة التي يتحدث عنها، ويقسم أنني أنتمي لها وسأرى بنفسي ذلك لو سمعت كلامه يأخذني إليها، ترى ما مدى صدق الحكاية التي يرويها لي كل يوم على وتيرة واحدة لا يمل من الكلام عنها، أخذ عقلي يتقبلها شيئا فشيء وكبرت معي القصة بكل عناصرها الغريبة، بدأتُ أشعر باختلاطات غريبة من أفكار تتكرر، تشوش ذلك العقل الذي يسكن رأسي المتحرك المرتبط بجسد تهجره الروح، تسبح بفضاءٍ غريب، تأتلف بعضً الأرواح، مرة احلل تلك الخرافات، مرة أتوقع بأن أهلي حقيقة جاؤوا بي رضيعة، من إحدى الملاجئ، عشتُ معهم كالخادمة بذُل، إلى أن أصبح عمري الزمني والافتراضي وأنا معهم أكون أكبر من عمري الحقيقي. ليس العمر الذي ولدتُ به، أو عشته من السنوات التسع، التي أمضيتها معهم، هذا ما فعلته عندما علمتُ أنهم ليسوا أهلي الحقيقين، قررت الهروب من ذلك المنزل ومن الرجل الذي يلاحقني وهو بالأصل والدي بالتبني، هذا ما يمكن أن يكون تفسيره بعد أن جاءوا بي رضيعة وأنا بشهوري الأولى من ملجئ الأطفال، حاول التحرش بي أكثر من مرة، يمرر يده على كل الاماكن الحساسة من جسدي الصغير منذ كنت بالرابعة ولم افهم تفسير لذلك سوى أنه والدي، ما يفعله معي تعبير، هو عن حبه وحنانه لي، كل

هذه التفسيرات كانت تتراءَ أمامي، لأجد لها مبرر يقنعني بما سمعته، ربطتُها ببعض لأفهم وأقتنع أنهم ليسوا أهلي، من خلال حادثة بسيطة مرت بالماضي والآن يعيدها الحاضر ويؤكدها هذا الرجل الهلامي الذي ينقل ليَّ كل الحقيقة، كما يقول: من باب العطف والشفقة ليعرفني على أهلي، عندما يقترب مني، يفقدني الصواب من عقلي، الباقي منه القليل، لينفجر بكل ما فيه، يبدو لي كوهم يلامسني كمرور موجة هواء عاصفة ... ساخنة، يصدر صوت رهيب تهتز لها أوصالي كلها ارتجف كصاعق كهربائي مسني، شيطان هو إذًا لا محالة ..؟؟ كيف لي أن أميز ذلك الصوت، الغريب لهذا الجسد، الآتي من وراء الحواس، المتعددة الأرقام، تتلاعب بها الأحاسيس كلها، لتثبت أن لهذا العصر الجديد، حاسة سابعة سبقت الحاسة السادسة، وتميزت عليها، مؤكدة ذلك، بما يحدث من تسلسل زمني، عند وقوع تلك الظواهر الخارجة عن الطبيعة ..!!مشتتة الأفكار أكون حين أشعر به، ينتابني الخوف، يأتيني صوته يخترق المدى كالرعد أحيانً يهزني بجبروت تمردٍ وعنف ..!! هكذا كانت بداية معرفتي عن الحواس بأنها أكثر من الخمس وما أعيشه هو السابعة لا محالة، أعرف أنني تجاوزت كل التقاطعات لحاستي السادسة وما يسبقها من إرشادات الحواس وتفسيراتها. أخذت تلك الحالة تأتيني على غفلة مني بين كل واقعة وأخرى بزمن قليل مختلف التوقيت، تحركني وتعيش بي تمزجني بذاتها بعض الوقت وبعدها تحررني. تتحرر مني حين أخرج من داخلي، وتحررني من ذاتي حين أعود وأسكنها بعيدا عن ذاتي، أسرح بعالم آخر أهيم كروح شاردة، بين الأرواح الكثيرة التي تحيط بنا، لا نراها، لكننا نحسها حين تكون درجة صفاءنا الذهني والنفسي عالية، في أوج تألقها، فيرتقي بنا ذلك الصفاء فيزيقيًا إلى درجة من التسامي والتسامح الإنساني والروحي معًا، لنسمو درجةً فوق هذا العالم الوضيع.

تركت لعب الأطفال التي كنت ألعبها معهم، وبدأتُ اللعب مع الكبار، لأنه يغريني أكثر، فيه متعة وتسارع لأحداث غيرت مجرى حياتي، تغيرتُ من خلالها قناعتي لكثير من الأمور، أولها أن اللعب مع الكبار يشكل انسجام بين الروح والجسد، كلاهما واحد ومحسوس، ربما أراهم طالما لهم كيان من روح وجسد مثلنا وعقل يفكر، أيضًا لهم أفكار تشارك أفكارنا، لهم صوت نسمعه، لهم نفس نحس به، لك هذا الاختلاف بين لعبي الصغيرة، وبين صديقي الكبير المرافق لي، واهتمامه الكثير بي، تعلقت روحي بتلك اللعبة الجديدة، لعبة الكبار، أصبحتْ تستهويني بشغف غريب، تُرضي طموحي لأفكار جديدة، واحتياجاتي العقلية لحواسي السبع وليس الخمس، من خلالها عرفت

أيضًا أن الميتافيزيقيا ليست كلها مرعبة، مع الوقت أحببتُ لعبة ما وراء العقل بكل أبعادها الحسية والغير حسية، مع أنها متعبة وشاقة، لكنها جميلة ومشوقة، عند تلك النقطة من المنعطف الذي وصلتُ إليه، تابعتُ بحثي عن حقيقة تلك القصة التي تتعلق بمعرفة أهلي وما يخصني بهذا الموضوع والحالات التي تأتيني لأعيشها بصدق وأنا أبحث عن تفاصيلها الممتعة خاصة بعد أن حصلتُ على هذه الكمية من المعلومات، أخذتُ أسبح بفضائها اللاواقعي يثيرني ما وصلتُ إليه حتى وأنا غائبة عن الوعي التام أعيش الوهم، وكأن ما مر بي من أحداث مع تلك الظاهرة هو حلم ... مجرد حلم، لكابوس ربما أستيقظ منه في وقت ما، ولكن، مهما كانت صحته من الواقعية وقناعتي به، أجزم أنه أخذني خارج نفسي، ورماني بجوف عقلي الباطن، في غفلة عن عقلي الواعي لها، أو النائم عنها، لكنها وصلتْ عن علم ويقين وليست عشوائية الحدوث، للحظة من الشرود وخروج عن المألوف لسياق العادة الطبيعية لمسار النفس لحالة نفسية أعاني منها، لأسباب خارجة عن إرادتي، وقفت متفرجة بين الروح والجسد، أتجاذب لأنفصل مرة أخرى، عن مكاني وزماني، أنا لا أحمل هوية للروح التي تسكن بي، ولا جواز سفر للجسد الذي يمثلني، الروح التي تسكنني تسافر بي كل ليلة بدون أوراق ثبوتية ... تسافر بدون جواز للسفر، وإذن للخروج من جسدي ... الأرواح لا تحتاج جوازات سفر لتنقلها، تمر وتعبر الأثير الذي تخترقه لتصل إلى جسد روح أخرى تتبعها، تقتفي أثرها بشغف المحب الهائم وراء حبيبه، تسكنها هكذا بكل بساطة، بدون سابق تصريح أو عقد إيجار للسكن، هي لا تطلب الاستيطان بأي وطن، ولا تصريح للزيارة، لأنها تختار الوقت وتأتي بمزاجها، موطنها الجسد الذي تنشده، حين تلتقيه تستوطن فيه، تلك الروح كما الأرواح كلها، تستوطن الجسد بدون أن تملك هوية انتماء لأرضٍ أو لمكان أو لعائلة أو لوطن ...

أصبحت ضائعة وشريدة .... لا انتماء لي، ولا روح تسكنني، أصبح جسدي مفرغ، يهيم كغزال شارد، يبحث عن مسار الروح التي تسكنه، عند منعطف الفراق المفروض، هذا لا يحصل معي عادة. !!

ما هذه الفلسفة التي أتفلسف بها، لأفصل بها روحي عن جسدي، لأبرر سبب ما أنا به ..؟؟ ليس هذا أبدا ... من أنا .... من أكون .... ابنة من ... لمن أنتمي. ؟؟أشعر أنني أغيب عن الوعي، وأعود لأستيقظ على صور لبعض الوجوه تتزاحم حولي تنتظر مني تفسيرًا ولو كلمة واحدة ... أو شرح غير مفصل لأسمي وعنواني وانتمائي. !! ونسبي .... من أكون. ؟؟؟

خانتني نفسي الراحلة في الأفق البعيد، بين الضياع وبين تلك الوجوه الفضولية حولي تأكلني وعيونها المستفسرة، تنهش جسدي متسائلة: من أكون ... من أنتِ أيتها الصغيرة. ؟؟؟أنظر إليهم مستغربة؟

ما هذه الوحوش التي تحيط بي، إنها أنواع من الكائنات البشرية التي يأكلها الفضول، فجأة قفزتْ من بينهم روح متسلقة، بخفة شديدة واقتربت مني، استغربتُ لها؟من هي هذه الروح؟

أراها خرجت من جسد ما .... أهو جسدي تُرى؟ أهي روحي التي تحركني لتوقظني من سُبات طال أمده.؟

أمشي مع تلك الروح برجلين هما لي على الأغلب، لا أصدق ما يحدث، ركضتُ بهما فرحة وأنا أردد إنهما لي هاتين الرجلين لي أخذت أتلمسهما لأتأكد، الآن أستطيع أن أهرب بعيدًا عن أعين هؤلاء الفضوليين. وصلت معهما لجدار شارع فرعي أسندتُ نفسي وكتلة جسدي الضعيف عليها وراوحتُ مكاني مع السكينة التي أشتاقها، كانت لي يوما ورحلت عني، أضعتها من مدة، بين النفس والروح، لا زلتُ أتراوح معلقة ومغلقة بين عالم لا أفهمه، لا أعرف إلى أي انتماء يجب أن أنتمي، وبماذا سأخبر الآخرين عني حين يلتفون حولي كما فعلوا منذ قليل. ؟؟تأخذني صراعات الواقع إلى اللاواقعي، بينهما أنشطر بين العقل والباطن من القلب، أتمزق من قسوة ما يمر معي لأحداث مثيرة، جعلتني أتبع تلك الخطوات، واحدة تلو الأخرى في توسل لمحاولة الوصول إلى قاع النفس التي أغرق بها ولا هناك من أحد ينتشلني....من يسكنني الآن لألتقي به .... من يتحاور معي وأتحاور معه .... ألمُس الصوت يأخذني لليقين ... أتيقن من حقيقة وجوده، ووجودي معه، حين، تنفصل عني تلك الروح التي تسكنني وأعيش بها، أُصبح كالشريدة ... من أنا ... من أكون ...؟

بين نفسي المتعبة بالخوف المثقلة بالوهم المنشطرة بمشرط اللاوجود، ذاتيًا ووجدانيًا، أتوقف لأشعل فتيلاً من عود ثقابي، ليحرق كل ما بداخلي من أنين الماضي، لشخصية وهمية خلتُ نفسي أنها أنا، تركتها تسكن جسدي تمزقه تتصرف عني، تقوم بأفعال لا أود فعلها ولا أريد القيام بها فحاولت حرقي .. لذلك قررت الفصل بيني وبينها، لأواجه الحقيقة المرة إذًا، أحدد هويتي الشخصية أبرزها لمن يمر أمامي ويسألني من أنت؟

أظهر بطاقتي أقول لهم، أن لي انتماء واحد، وخانة واحدة، موجودة على هوية أبي الشخصية، ونزلتْ عليها، وأني لا زلت صغيرة لذلك أنتمي إليه وليس بوسعي ولا

بمقدور أحد أن يغير نسبي. تخطفني فضولية النظر، أشك بأن أحدً يلاحقني، ربما مجموعة هي، أين أهرب من كل هؤلاء، أهناك من يلاحقني حقا. ؟؟؟

شريدة أنا وممسوسة، لا زلت أدور في دوامة مفرغة، لا أعرف إلى أي مكان ألتجئ لأحمي نفسي من عواصف الزمان وحقد الأيام، أنا أحمل حقيبة سفر كبقية المسافرين كالعادة، حقيبة ترحالي الصغيرة المتواضعة فقدت مني، كنتُ أتنقل بها من مكان لآخر، أستجدي الروح التي تسكنني وتهرب مني بعض الوقت لتدلني على مكان آمن يحميني من شوارع العتمة لتلك المدينة وأزقة دروبها القاسية ملامحها، تحمل أعمدة أنوارها مصابيح من الظلمة لانقطاع النور من كثرة العتمة التي تسكن قلوب ساكنيها لأنهم أشباح وبقايا بشر، أقف أحيانًا لأتابع معهم المسير بنفس الخطوات، ماذا أفعل وأنا بعمر الثانية عشر ليس لدي سوى شهادة واحدة أحملها معي من ملجأ الأيتام اللاجئين، هي هويتي التي تتكلم عني، وأنا أمقتها ولا أريد الانتماء إليها، فكم من مرة حاولت التخلص منها ولكن دون جدوى وبلحظة كانت المواجهة الحاسمة حين وجدتُ نفسي أمام سيارة شرطة تقف أمامي، ترجل منها شرطي برتبة معينة لا أعرف قراءتها نجمتين وشيء آخر أقترب مني يسألني عن أسمي قائلا: ما أسمك يا صغيرة.؟؟ماذا تفعلين هنا بهذه الساعة المتأخرة في الليل. ؟؟جاءت أسئلته كثيرة ومتتابعة، أخذتُ أرجف من لا شيء، وخوف الاعتقال إلى نهاية أشدُ بؤسًا مما أنا به إن أخبرته عن حالتي، وسبب نزوحي ووجودي بالشارع بمثل هذه الساعة المتأخرة

بليلة شتاء قارصة. لكنه لم يترك لي فرصة لأن أفكر بشيء لأقول له، أمسك بذراعي يهزني قائلًا من أنت يا فتاة ...ما اسمك وأسم عائلتك. ؟؟

قلتُ له متلعثمة أنا ... أنا شريدة .... لا أعرف من هم أهلي رد قائلا متعجبًا .... شريدة؟؟ سأل: ماذا تعنين بشريدة ..؟؟لا تعرفين من هم أهلك ... كم عمرك. ؟؟لا أعرف ... أخذتُ أجهشُ بالبكاء والكلمات تخرج من فمي متقطعة الحروف لوحدها.

أجبته بسرعة من الخوف وقلتُ له: ربما عمري اثنا عشر عامًا .... لا أذكر كم من العمر والأيام مرت عليَّ لا أعرف بالضبط.

عاد يسأل: أليس لك أهل يسألون عنك ...؟؟

لا .... لا.

عاد يسألني مستغربًا: ليس لك أهل ... ؟؟

كيف ذلك يا فتاة. ؟؟

أصبح يناديني ب يا فتاة .... يا لتعاستي ماذا أقول له ..؟؟

من أنا ...؟؟؟

لا أعرف من أنا صدقوني ... ؟

عاد يشدني بيديه القويتين ويهزني وهو يقول من أنتِ تكلمي ..؟؟

في غمرة ضجيجه وسرعة أسألته المتواصلة، جاءني هاتفي كالعادة لينقذني من المأزق الذي وقعتُ به وهو يقول لي: أخبريه بأنك خرجتِ لشراء بعض الأغراض لأهلك أو لشقيقك الصغير أو أي شيء آخر يخطر ببالك لا يهم فقط تكلمي وكفي عن البكاء، هيا يا صغيرتي لا تخافي أخبريه، تذكري دائمًا أنني معك لأحميكِ ..فجاء ردي عليه وأنا أكرر ما سمعتُ منه ..

خرجت لأجلب الحليب لأخي الصغير وأمي مريضة وأبي سافر ولم يعد بعد. عاد يسألني من جديد أين تسكنين أيتها الصغيرة وكأنه لم يسمعني في المرة السابقة لذلك غيرت أقوالي كلها واستعدت رباطة جأشي وقوتي وأخبرته أنني أسكن هناك بهذا الحي على بعد بضعة أمتار وأنا أُشير له بأصبع يدي، فامسكني من يدي تلك وأوصلني إلى حيث أشرتُ له دون أن يتأكد من مكان سكني ومن شرائي الحليب الذي ذكرته له.

وطلب ألا أعود للخروج من البيت ليلاً، فأتعرض للاغتصاب، أو السرقة، أو أي شيء مهين من تلك الأمور التي نسمع عنها، وتحدث من قبل عصابات تبحث عن الفتيات الصغيرات، مثلك يا صغيرة، هيا أركضي إلى بيتك، وضربني على قفاي بقوة أوجعني بها وكدتُ أقع أرضًا لولا تماسكتُ خوفًا منه، صرختُ متألمة أنعته بألفاظ غريبة وأنا أركض لا أعرف. ومضى هو إلى سيارته، وتوقفتُ أخيرًا ألهثُ من التعب والخوف، أخذت نفس بصعوبة بعد أن تقطعت أنفاسي من الركض، حائرة لا أعرف إلى أين أذهب بعد أن ضاعت مني رباطة جأشي وقوتي الافتراضية المستعارة كانت من مرافقي الذي دعمني بالثقة، أخذت دموعي تهمر كحبات المطر هادئة، ضائعة كنتُ وتائهة، لا أعرف على أي أرض أقف، وبأي مسكن سيأويني ويكون مصيري النهائي.

إلى أن جاءني هاتف آخر، يهمس لي برفق شديد هذه المرة، تعالي يا صغيرتي، تعالي أتبعي خطواتي، صحيح إنني لا أظهر لك وليس باستطاعتك رؤيتي، ولكنك ستسمعين صوتي، وقع خطواتي تؤنسك أتبعيها بإحساسك ولا تتجاوزيها مهما حصل، ربما بعض من الوقت، والقليل بعده، يبدأ خيالك في تحديد شكلي كما ترغبين وتتوهمين، لا يهم كيف، ولكن ذلك سيؤكد لك أنني موجود معك ووراءك دائمًا، شَرطي الوحيد لكِ، ألاَّ تلتفتِ وراءك فتزهق روحك من المفاجآت التي تنتظرك، فاصطكت رُكبي ببعضها قبل أن ينهي كلامه من كثرة الخوف، تابعتُ المسير أمامه ليس لي خيار، وهو ورائي

يتابعني، وأنا أصغي بكل حواسي إلى سمعي لخطواته الغريبة، كأنني أمشي وراءها وليست هي التي ورائي، لقوة إحساسي بوجوده ربما، وتجاوزنا طرقات كثيرة وبعض الأزقة لشوارع رئيسية متنوعة، لكثرة المشي والركض، وهول ما صادفني من أحداث، تعبتُ من المسيروتملكني الإرهاق لدرجة أحسستُ فيها أنني لم أعد أستطيع المتابعة، لكن فوجئتُ بالخطوات التي أتبعها أنها توقفت، أمام منزل كبيرفخم تحيط به حديقة مسورة بسور مرتفع لبوابة عالية من الحديد الغالي الثمن، في زحمة ملاحظاتي التي بدأتُ اسجلها، قبل وقوفي أمام هذا المنزل الفخم وأنا أتأمل منبهرة بكل شيء أمامي، أعادني الصوت بغفلة عني إلى الواقع، أخذني مما كنتُ أحلم به، أعادني للواقع، طالبًا مني وهو يقترب بصوته الأجش، مسافة أكثر مما أتوقع يطلب مني ويقول: أدخلي هذا المنزل يا صغيرتي وعندما تقتربين من الباب الرئيسي هذا، وتابع يقول: اكبسي بيدك على جرس هذا الباب الفخم، أشار إليه بيده، أحسسته يفعل ذلك، كأنني أراه، كأن وجوده معي حقيقي. !! كنا نتابع السير ونحن نقترب أكثر من المنزل الكبير، وهو يتابع حديثه معي يشرح ويقول: ها هو أصبح أمامك الآن، اقتربي أكثر بخطواتك لا تتلكئي هكذا يا فتاة، ماذا أصابك بالله عليكِ. ؟؟

كنتُ مأخوذة بكل ما يجري لا أصدق ما يحدث ولا أعرف كيف أصبح له يدٌ تمتد نحوي ويشير بها، أم تراني أُوهم نفسي بذلك... أو أني أحلم. ؟؟

صرخ بي أسرعي الخطى يا صغيرة، لا تخافي أبدًا، عند وصولك أكون قد أبلغتك بكل ما يجب عليك فعله. ماذا تفعلين، وماذا تقولينه لهم، ستدخلين حياة هؤلاء القوم وتصبحي منهم، وفرد من أفراد هذه العائلة العريقة والثرية، لأنك بالأصل واحدة منهم. برغم أني سمعتُ هذا الكلام منه لأكثر من مرة ولم أصدقه، لكن اليوم راعني ما أسمعه، الآن وفي اللحظات الأخيرة للقاء بهم وجه لوجه، هذه المرة بالذات ترعبني، وأنا بعد لحظات سأكون أمامهم وجهًا لوجه أمام الحقيقة العارية من كل الزيف والقصص التي كان يرويها لي دائمًا، تجمدت مفاصلي التي هي بالأصل مجمدة ترتعد من تعري الحقيقة وكشف هذا اللغز. ماذا يقول لي هذا المتخفي خلف سحبه الهلامية. ؟؟ هل ما أسمعه بهذه اللحظة حقيقة. ؟؟

هل هو موجود بالأصل، من أين له هذه المعلومات، وهل هو متأكد منها لدرجة اليقين. ؟؟متأكد من معلوماته بثقة، يجرجرني وراءه، يسحب مني كل قوتي، يضعني وجهًا لوجه أمام قدر غريب عجيب، اختياره لي بنفسه. ؟؟إلى هذا المكان ساقني كنعجة، لا يمكنني تصديقه، هناك سؤال آخر لا زال يحيرني، برغم أنني أسير كل

الخطوات صامته أتبعه، لأصل إلى ما أراد لي، الوصول إليه، بالوقت المحدد، الذي اختاره هو لحظة اللقاء ترعبني ... من أنا وابنة من أكون.؟؟

لا أعرف كيف أتصرف معهم، ولا أستطيع التفكير بالرجوع، بعد أن وضعني بمنعطف لا رجوع منه. ؟؟ وكيف عرف هذا الهلامي اللزج هذه المعلومة. ؟؟

لماذا أنا بالذات اختارني هذا المارد الهلامي، لأكون هنا بهذا المكان وأنتمي لهذه العائلة بالذات. كيف كان يلاحقني وهو يتبعً أثري، ومن ثُمَ، يجرني إلى هذا المنزل الفخم، والحي الراقي ليقول لي أن أهلي هنا، يطلب أن أضغط جرس الباب ... ترددت ساهمة أفكر بلا شيء، ولم أفعل، فمد يده الهلامية وكبس على زر مزروع على الحائط، وإذا بالباب يفتح ويطل منه حارس بلباس رسمي، بهرني منظره الأنيق وما رأيتُ خلفه من المكان، حين رفعتُ جزعي، أحاول أن أمد رأسي بعض الشيء برفع قدماي، وعلى رؤوس أصابعي أصبحتُ أقف، لأجمع الصورة بكاملها، أنتقل بنظراتي، أمسح المكان من بين جانبي الحارس، لاحظتُ أن ثيابي لازالت رطبة بعض الشيء، تجاهلت وضعي السيء والمذري على الأغلب، إذا ما قارنتُ نفسي بسكان هذا القصر، تابعتُ بأفكاري أنا أحوم بنظري حول الحديقة التي ظهرت خلف الحارس بهرني تنسيقها وروعة جمالها فيها ممر للمشاة وآخر للسيارات. قطع ذلك الحارس الأنيق، عند عودته حبل أفكاري، وتوقفت نظراتي عن مسح المكان لأسمع ما يقوله الحارس عندما تقدم نحوي، بصوته الرخيم الهامس ماذا تريدين يا فتاة. ؟؟

قبل أن أرد عليه تلعثم لساني وتوقف تفكيري، لأني لا أعرف ماذا أقول، لكن الصوت الذي جاء خلفي ولا زال ورائي يتابعني، أسعفني قائلاً: رددي ورائي كل ما أقوله، وأخذ يقول: أنا أسأل عن السيد مختار اليماني أليس هذا مسكنه. ؟؟

جاءني الرد: أجل هو، من أنت لأقول له. ؟؟

قلتُ له، وأنا أردد ما سمعته من الصوت ورائي يقول: قريبته وينتظر وصولي من مدة، أخبره بذلك لو سمحت (هذه العبارة جاءت مني إضافة لما قاله لي الرجل الهلامي).قال ما أسمك يا صغيره. ؟؟

اسمي مريم مختار اليماني ... ذكرتُ له الاسم بالكامل كما سمعته أيضًا.

ذُهل الحارس، وأخذ يتأملني مليًا، ثم قال أعيدي ما ذكرتيه يا صغيرة من أنتِ. ؟؟

مريم مختار اليماني .... ألا تسمع أيها الحارس. ؟؟

اذهب وأخبر سيدك بما سمعت فورًا.

قال بذهول شديد وهو يرثي لحالي: متأكدة أنتِ مما تقولينه. ؟؟

أجل .... أجل متأكدة ..

تركني حارس الفيلا وذهب وهو يضرب أخماسًا بأسداس، وكفً بكف ويقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ماذا يحصل بهذه الدنيا، من أين أتت هذه الفتاة، كيف يكون ذلك، من أين جاءت .... أيمكن. ؟؟

قلتُ لنفسي جُنَ هذا الرجل لا محالة، ما سيأتي به القادم لن يبقيه له عقل، كما حصل لي .بقيت واقفة بعض الوقت وأنا أنتظر، ومرافقي يقف ورائي لا زال يحدثني، يعطيني بعض التعليمات، عما سأفعل وأقوله عندما يأتي مختار اليماني، أو أي أحد من أفراد العائلة، أو لعلهم يأمرون الحارس بدخولي ومقابلتهم لي ستكون حتمًا بالقصر، وهذا أقصى ما يتوقعه الرجل الهلامي الذي لا زال يرافقني ويتنبأ بكل ما يحدث معي الآن قبل أن يحدث.

وأنا منبهرة ومعجبة، بكل هذه الأحداث، ها قد تحققت تلك النبوءة، أو في طريقها لأن تصبح حقيقة أعيش تفاصيلها، هو اختار تسلسلها وتوقيتها، كنت ، بالبداية لا أستطيع تصديقها، لكني الآن، أمام الأمر الواقع، مجبرة لا مفر لكي أتقبلها، أتحمل دهشتي بصبر لما سيحدث بعد عودة الرجل، يخبرني إنهم سمحوا لي بالدخول، وأما أعود من حيث أتيت، وتنتهي تلك المهزلة ..!! أخبرني الرجل الهلامي، وكأنه كان يقرأ افكاري، فقال: أن شيئًا مما يدور في دماغك من رفضهم مقابلتك وقبولهم لك لن يحدث يا صغيرتي، أطمئني، لم أسأله عن السبب، فقط اخذتُ أنتظر بصبر فارغ، مضى وقت لا بأس به، كنت خلال ذلك قد قاربتُ على الملل والضجر، فكرتُ بالرجوع، وفعلاً قررت العودة، بينما أحاول أن ألف لأستدير، منعني باللحظة الأخيرة صوت خطوات الحارس وهي تتقدم نحوي، جاء ومعه الجواب القاطع، يحدد من خلاله كل شيء: عندما اقترب مني قال: أنهم بانتظارك تفضلي يا سيدتي. بهتُ لما يقول وينادني به، سيدتي دفعة واحدة. ؟؟ بعد أن كان يقول لي يا صغيره، خفق قلبي الصغير بين ضلوعي، زاد توتري وحبات من العرق البارد بدأت تملأ جبيني وتتساقط على وجهي برغم البرد والمطر المنهمر وثيابي المبللة، تريثتُ قليلاً، ثمَ نظرتُ خلفي خائفة، أتوقع أن أرى أحد جاء به فضوله ليراني، قبل أن أدخل القصر، نظرتُ بكل الاتجاهات لم ألمح أحد، كأن الرجل الهلامي الذي يرافقني، قد تماهى تمامًا هو الآخر، لم يعد له أثر، هكذا ظننت، لكنه وعدني بأنه لن يتركني أبدا حتى يطمئن أني وصلت بالسلامة، ويعترفوا بأنني ابنتهم. قلتُ لنفسي هذا سيحدث معي الآن حقًا، لهذه الدرجة هو واثق من قبولهم استقبالهم لي، ومع أول محاولة لتعرفي عليّهم وتعرفهم عليَّ، أيمكن هذا،

وبهذه البساطة تسير الأمور.؟ أخرجني من أفكاري صوت الحارس يسألني مستغربًا: ألا تريدين الدخول يا سيدتي. ؟؟ قلت لكِ أنهم بانتظارك ، ماذا تنتظرين بحق السماء. أحسست بيد تلمسني وتهزني وتدفعني لأتابع السير باتجاه الباب، وكأن تلك اليد تُصحيني من غفوة سرحتُ بها، وتسألني هي الأخرى ماذا بك تحركي. ؟؟

فسارعت أقول أجل ... أجل أريد نعم ... ارتبكت وتعثرت، وسارت خطواتي بي وراء الحارس الذي طلب مني أن أتبعه، جميعهم يريدون مني أن أتبعهم، المرئي منهم والغير مرئي. ماذا يحدث لي يا رب. ؟؟

تابعت وأنا أسير وراءه البواب، وهو يسير بي بحديقة القصر الجميلة، الوارفة الظلال، وخمائل الورود على الجانبين، كنتُ مستمتعة بالمنظر الخلاب، مشدودة بكل حواسي إليه تأخذني نشوة مع رائحة الورد، ارتاحت نفسي قليلاً من التوتر الذي كنتُ عليه قبل ثواني. وعاد لي نشاطي، وحين وصلت معه إلى الباب الرئيسي للفيلا، تقدم هوورن الجرس، فُتح الباب الكبير الفخم، ظهرت منه سيدة في منتصف العمر تقريبا، بعمر أمي أو أكبر قليلاً، لا أعرف تمامًا لأني لست على دراية بتقدير الأعمار ولكنها سيدة تشبه أمي بعمرها تقريبًا.

لا ... أنا لا أستطيع تقدير الأعمار ولا أعرف شيء عن ذلك الأمر، لا زلتُ صغيرة. استقبلتني تلك السيدة بحفاوة لا أدري كنهها، بعدها صرفتْ الحارس، مرسومة شفتيها ابتسامة باهته، وسؤال يحمل استفهام مؤجل صامت، مع ابتسامة أخرى مجاملة ليست نابعة من قلبها، أحسستُ بذلك وهي تقول لي: تفضلي ومشيتُ وراءها إلى أن دخلنا معًا غرفة استقبال فخمة وهي تحيط بيدها على كتفي برفق، كل شيء بهذا المنزل يوحي بالفخامة والثراء والدفء، أيعقل أن أكون ابنة هؤلاء الناس. ؟؟

هذا ما سيكشفه لقائي بسيد المنزل، وسيد هذه العائلة الفائقة الرقي ليس موجود على الأغلب، طلبت مني تلك السيدة، وأنا لا أعرف أن كانت هي أمي، أو ستأخذ يوم مكان أمي ودورها معي بالحياة التي سأعيشها معهم لو قدر لي وكانت القصة حقيقية فعلاً، أو ربما تكون هذه السيدة أحد الخدم، ربما أنها سيدة الخدم لهذه العائلة برغم أنها جميلة الهندام ونظيفة، ويظهر أنها رقيقة المعشر وحنونة، لكن ليس لها رائحة أمي المسكية العنبرية العطرة برائحة الأمومة، تركتها وهي الآن قلقة عليَّ، ولا تعرف أين أكون، هي التي ربتني، عشتُ معها عمري البالغ أثنتا عشرة عامًا، كيف أتركها ورائحة أمومتها معي ترافقني وحضنها يغمرني وتفوح عطرًا كل قطعة من جسدي وتقول إنها أمي، ولا شيء مهما كان يمكنه أن يبعدني عنها، عدتُ من افكاري

على صوت السيدة، تطلب مني الجلوس على الكنبة، مشيرة بيدها إلى زاوية معينة، فجلستُ على أول كنبة أرتطم بها جسدي الصغير وتألمت، جلست بثيابي الرطبة متكورة وركبتاي في حضني ألفهما بيديَّ الاثنتين، لاحظتُ أنني دائمًا أتكور ملتفة حول تضاريس جسدي الصغير وأنا أرتعش من لا شيء، يحدث ذلك لي عندما أقع بمأزق، أو أكون بموقف حرج وغريب عني، من الرهبة والخوف لمثل هذه المواقف التي لم أتعود عليها بعد، وهذا اللقاء الغير منتظر حدوثه، غير متوقع ولا محسوب بحياتي. جعلني هذا الموقف، من هول الصدمة أرتعد بردًا. دخلت علينا صبية، بعد أن نقرت بخفة على باب الغرفة تستأذن بالدخول، وسمحت لها السيدة بالدخول بكلمة أجنبية، دخلت وهي تقترب بخطواتها الهادئة مني تسألني ماذا أود أن أشرب. ؟؟تناقلتُ بنظراتي المتعبة من الجهد والارهاق، بين السيدة وبين تلك الصبية التي ترتدي مئزرا أبيضًا ناصع البياض فوق ثيابها الأنيقة، قلتُ بخجل: أنا لا أشرب شيء سوى الشاي مع الفطور والعشاء. نظرت السيدة إلى الصبية وكأنها تقول لها شيء، هزت برأسها وخرجتْ مغلقة الباب وراءها لتأتي بعد قليل بكأس من عصير البرتقال وتضعه على الترابيزَ أمامي، وهي تقول تفضلي سيدتي. أحسست لوهلة أنني فعلاً السيدة، وأنني أخذ مكاني الصحيح بينهم، لكن إحساس ما جعلني أشعر أني بوضع لا أُحسد عليه البته وأن الكل هنا يسخر مني هنا، لا شك بذلك. تقول لي سيدتي وكأنها تستهزأ مني. ؟؟

أم أنها تعترف كما الجميع، أنني سيدة في هذه المنزل وفرد من أفراد هذه العائلة. خرجت تلك الصبية التي قدمت العصير، أغلقت الباب وراءها، عند ذلك تقدمت السيدة مني وجلست بقربي وأخذتْ تسألني الأسئلة المتوقعة بهذا الموقف: بالبداية سألتني عن اسمي، أجبتها إنهم ينادونني مريم، أعتقد أنه اسمي، تأملتني قليلاً وبعد ذلك قالت لي: كيف عرفتي أنك تنتمي لهذه العائلة. ؟؟قلتُ لها: إنه اسمي الثلاثي (مريم مختار اليماني). هزت برأسها بصمت. كانت أسألتها لطيفة مهذبة، فيها رقة وعذوبة، وليست جارحة.

قلتُ لها: أن أحد أخبرني بذلك وأنا لا أعرف ولا أصدق ما قاله لي .

أن من عشتُ معهم، أمي وأبي وأخوتي، ليسوا أهلي الحقيقين وأني لستُ أبنتهم، لا أصدق عادت تسألني: من هو الشخص الذي اخبرك بذلك. ؟؟

قلت لها: لا أعرف من هو ذلك الشخص ولم أراه ، هو فقط أخبرني بأنكم عائلتي التي أنتمي إليها. جاءني ردها وهل صدقته بهذه البساطة، كيف أخبرك بهذه الحقائق

التي يقولها، ومن أين جاء بها.؟ ... صمتت لبرهة ومنثمَ تابعت تقول : من أين عرف أن عائلة مختار اليماني هي عائلتك وأهلك؟ اختنقت العبرات داخل جوفي وأخذت أجهش بالبكاء بصوت مرتفع لأول مرة، ولكني استطيع ا لسيطرة على نفسي كي لا أضعف وأنهار أمامها ويشتد بكاءي أكثر، عاهدتُ نفسي أن أكون قوية ، وعاهدت الرجل الهلامي بذلك، حين طلب مني ذلك لكي يصدقوني، هذا ما فهمته، قلتُ لها: أنا لا أعرف من أنتم، ولا أعرف من هي عائلة اليماني هذه يا خالة، أهلي لا يعلمون بشيء مما أعلمه وأعرفه من مدة أصبحت طويلة، كتمتُ الموضوع عنهم إلى أن أخذت القرار بأن أتعرف عليكم وأتأكد من صحة ما سمعته، عندما خرجتُ من منزلهم، لم أن أخبر أحد، قررتُ أن أبحث عن هذه العائلة التي سمعتً أنها عائلتي، لأتأكد من صحة اسم هذه العائلة، أهو موجود فعلا وليس كذبة أو اختراع مثلاً، كما ذكر ذلك الرجل الذي أخبرني ودلني على منزلكم وساعدني في الوصول إلى هنا وكان يرافقني.

يا ابنتي لكي تتأكدي من أحداث القصة التي رويتها لي، يجب عليكِ أن تتعرفي على الشخص الذي أوصلك الى هنا، ألا يجوز أنه يضحك عليك، وأهلك الآن يبحثون عنك، ومشغول بالهم عليك، كيف تجرأتِ وتركتِ منزلهم وجئتِ الى هنا، وأنت لا تعرفي شيء مما قيل لكِ، ولا زلتِ صغيرة السن على كل هذا يا ابنتي، أحسستُ كأنها توبخني على تصرفي الغير واعي والمتهور بنظرها. قلتُ لها ولكنني أبحث عن أهلي وعائلتي يا سيدتي وهذا ليس عارً افعله. هذه المرة أفلتت دموعي بلا توقف ولم أستطيع منعها وأخذتُ أبكي وانوح، وأخذت الدموع يتسارع طريقها على وجهي، أحسست بأنها صفعتني صفعة قوية على وجهي، مددتُ يدي أتحسس وجهي، وبدأ الخوف من جديد يعود، دائما يرافقني شعور الخوف عندما أقع بمثل هذا الموقف، رأتني السيدة أجهش بالبكاء ودموعي تنهمر، اقتربت مني وربتت على كتفي، امسكت ذقني بيدها ورفعت وجهي إليها وأخذت تتأملني بنظرات كأني أعرفها وقالت: أنتِ فتاة جميلة ونظيفة ومهذبة وعلى ما يبدوا أنك ابنة ناس محترمين. لماذا البكاء والخوف إنك ترتعدين من البرد يا أبنتي، أسمعيني وافهمي ما أقوله لك وأحفظيه جيدًا، أتركِ كل ما قاله لك ذلك الشخص، الذي أخبرك بأننا أهلك، عودي إلى عائلتك التي تبحث عنك، أنا سأتواصل معك أعدك بذلك، إن كنت أبنتي أو لم تكوني، سأعتني بك، لأني أحببتكِ، سأعيدك إلى منزلكم، هيا بنا يا صغيرتي جهزي نفسكِ وانتظرني لأرتدي ملابسي، لحظات قليلة وأعود إليك، قبل أن تخرج قلتُ لها: أنا أريد أن أقابل مختار اليماني، جئتُ لأجل أن أراه هو شخصيًا. لو سمحتي لي سأنتظره هنا إلى أن

يأتي، أراه وبعدها أفعل كل ما تريدينه مني، أعدكِ بذلك يا سيدتي، أنا لا أحبكِ لأنك سيدة قاسية القلب، ومتعجرفة، لا أريد أن أكون معكِ أبدًا، ولا أحب أن تكوني أمي، خرجت من الغرفة وأنا لا زلت أبكي، تركتُها وهي مندهشة لِمَا قلته لها، بعد أن قالت لي: حسنًا .. حسنًا سأتركك تقابلين مختار، ليس اليوم . ربما غدًا أو بعد غدٍ. لكن أعدك يا ابنتي بأنه سيأتي ليراكِ وتريه وتلتقي معه، لا تحزني، سأثبت لك أنني لستُ كما تتخيلين يا صغيرتي .... خَرجتْ وتركتني وحدي أنتظر. ماذا أنتظر لا أعلم.

جاءني صوت الرجل الهلامي من زاوية ما من الغرفة، يطلب مني أن أعود وحدي إلى البيت وهو من سيرافقني إلى البيت لأعود من حيث أتيت.

قلتُ له: لا ... لن أغادر هذا المكان قبل أن أرى وأقابل مختار اليماني هذا الذي تدعي أنه أبي، أتفهم أتيتَ بي إلى هنا مجبرة كنتُ، والآن لا تستطيع إخراجي من هذا المنزل قبل أن أتأكد من كل ما ذكرته، لتنتهي هذه المهزلة وتلك القصة بكل فصولها بسلام، يكفي ما عانيته بسببك، لم أعد أحتمل الازدواجية التي جبرتني لن أعيشها لأنك ترى أن أهلي الحقيقين هم ساكنوا هذا القصر، وأنا وصلت لهذه القصر بعد مشقة وجهد كبير، سأنتظر هنا، وأفعل أنتَ ما يحلو لك. مضى الوقت بساعاته القليلة، كنتُ فيها لوحدي بعد أن تركني الرجل الهلامي، عندما يأس من مغادرتي للقصر بالوقت الذي طلبه مني، وبقيتُ أنتظر ما سيحدث من تلك المرأة، هل سيأتي فعلا مختار اليماني وأراه .؟ وهل هو حقيقة موجود ... أو بمعنى أصح هل له وجود. ؟؟أعرف أن هذا المرافق لن يترك لي مجال لاعتذر من السيدة، وأقول لها أنني سأعود لوحدي بعد أيام، بل سحبني من يدي خارج الغرفة ومن المنزل كله، حتى أصبحنا بالحديقة سألني الحارس: هل أنت ذاهبة لتعودي من حيث أتيتِ دون أن تقابلي السيد مختار. ؟؟قلتُ له: من قال لك أن مختار هذا سيأتي إلى هنا الآن ليراني ..؟؟

هنا، وأشار بيده وأنا أتابعها رأيت فعلاً سيارة سوداء فخمة مفيمة تدخل من الجانب الآخر، ركض الحارس إليها واقترب يفتح الباب الخلفي ليترجل منها رجل وسيم بعمر والدي، يرتدي ثياب فخمة جدا، أخذتُ أتأمله وأنا مشدودة ومندهشة، من يكون هذا الرجل. ؟؟إنه ليس بأبي ولكن يشبهه إليٌ حدٍ بعيد، لا يمكن ...؟؟ اقتربت من الحارس وأنا أقول له هامسة بأذنه أنني ذاهبة الآن وسأعود بعد أيام، قلتُ له ما أملاه عليَّ مرافقي. وعدتُ معه من حيث أتيت، سرتُ بنفس الطرقات وأنا ألتزم الصمت هو أيضاً ألتزم الصمت، وأنا فعلتُ مثله، لا أعرف من منَّا احترم التزام الآخر بالصمت، ربما لأن الموقف كله أصبح كتلة من بركان لو تفوه أحدنا بكلمة، لذلك كلانا

التزم الصمت ولم يتفوه بأية كلمة، خوفًا من مشادة عنيفة قد تحصل بيننا، وتابعنا المسير هكذا، وقبل أن أصل البيت بقليل قلت له: أنت كاذب ومنافق وتخدعني أيها السافل ....لكن لماذا .... لماذا فعلت بي ذلك .... لماذا تضحك عليَّ وتشوش أفكاري وتزرع الفتنة بيني وبين أهلي .... من أنت اِظهر لي ولو لمرة واحدة، وبجرأة أريني نفسك لو كنت رجلاً صادق على الأقل وتدعي الرجولة، واجهني لأقتنع أنك حقيقة ولستَ خدعة كاذبة. ؟؟

نهرني موبخًا وهو يقول بصوت عصبي: أنتِ لا تفهمي شيء أيتها الصغيرة، لا تفهمي شيء، أصمتِ ... أصمتِ أفضل لكِ... سترين بعد أيام قليلة ماذا سيحدث معكِ، عندها ستعرفين مدى صدقي أو كذبي. الأيام القادمة ستثبت لكِ بالبرهان القاطع، من هم أهلك، ارحلي الآن .... ارحلي أيتها الصغيرة التعيسة البائسة، المليئة بالعقد النفسية.

صعقني ما قاله , أنا مليئة بالعقد النفسية.؟

هذا الشيطان ماذا يريد أن يفعل بي، في كل مرة يأتي بها إليَّ يُهزئُني ويسخر مني. !!

كنا قد وصلنا الحي الذي أعيشه مع أهلي، بدأت خيوطه الفجر تنتشر، معلنة شروق الشمس بأشعتها الذهبية بعد قليل، وبدأت معها حركة أهل الحي تصطبح والرجل تدب بالشارع الضيق، لذلك لم أفتح فمي لأقول أية كلمة، وأنا لا أعرف ردة فعله، بلحظة ... أحسستُ أنني مستهدفة لتحطيمي وتكسير نفسي وشخصي، أيضًا أحسست كأنه تركني وهو مستاء مني ورحل ....ربما لن يعود، وهذا هو الأفضل لي ولمصلحتي أكيد. دخلتُ أتسلل الحي كي لا يراني أحد المارة ويقول لأهلي، ومن ثمَ دخلتُ البناء الذي نسكنه مع بقية الجيران، نظرتُ حولي وأنا ألاحظ وأشعر بالفرق الكبير بين حياتي هنا، وحياة الناس المتوقع أنهم سيصبحون أهلي هناك، كما رأيت، وكما ذكر لي مرافقي. فتحتُ الباب بمفتاحي الخاص، كعادتي عندما أعود من المدرسة، وتسللتُ على رؤوس أصابعي بعد أن خلعتُ حذائي، وأخذتُ طريقي منسحبة إلى غرفتي البسيطة التي أحبها، خلعت ثوب المدرسة ورميتُ به على أقرب مكان طالته يدي مع المحفظة المدرسية ودخلتُ سريري، التحفتُ غطائي، وكمرتُ نفسي به، كما كنتُ أفعل في كل مرة، ورحت في نومٍ عميق بدون قلق وتفكير، ومر وقت الصباح، وقارب أو انتهى وقت الظهيرة كاملاً، ودخل وقت المغيب، ولم أشعر إلاَّ ويدَ أمي تربتُ على كتفي برفق لتوقظني وهي تناديني و تقول: مريم ... مريم استيقظِ يا أبنتي ... وأخبريني أين كنتِ، وماذا كنتِ تفعلين خارجًا ...؟؟ أين كنتِ ولماذا كل هذا التأخير. ؟؟

فتحت عيوني وتململت أفرد جسدي المتكور بمنتصف السرير، وأشد يداي لأخرجهما من تحت الغطاء، أتمطى متثائبة لا زلتُ، وأنا أردُ عليها بكسلٍ وخمول قائلة: ماذا حصل يا أمي؟ أرعَبتني .... مهلك عليَّ أرجوك.

أمسكتني من ذراعي وأخذت تشدني وهي تقول: أين كنتِ ليلة البارحة ... ردي عليَّ، أخبريني فورًا .... الآن وحالاً، لقد طفح الكيل من تصرفاتك، لم أعد أستطيع الانتظار، تصرفاتك كلها لم تعد تعجبني من مدة طويلة.

أخوتك تعبوا طويلاً في البحث عنك، داخل الحي، وخارج الحي، وعند الجيران، وسألتُ سلمى عنكِ وكل صديقاتك وأهل الحي، الكل أجمع أن أحدًا منهم لم يراكِ طيلة النهاروحتى آخر لليلة الماضية، أين كنتِ بالله عليكِ أخبريني فورًا.

تابعت تقول بكلماتها المتراشقة كالسيف تسقط عليَّ، وهي تخبرني ما قالته لها سلمى قائلة: أنها لم تراكِ منذ فترة الانصراف، وفي المدرسة قالوا إنك خرجتِ عند الانصراف كبقية الطلبة، لكنك لم تأتي الى المنزل أين كنتِ، أمسكتني من كتفي تهزني وهي تصرخ بي تقول، ردي عليَّ أين كنتِ. ؟؟

نظرت إليها وأنا أهرش رأسي بيدي متثائبة، أقول لنفسي: عدتُ لتلك القصة من جديد، أنا الأكبر سنًا بين أخوتي الثلاثة الذكور لذلك أخذوا مهمة البحث عنيَّ هذه المرة. ولكن أين كنتُ أنا ومع من.؟؟

لماذا تسأل أمي عني، وتعتقد أني كنتُ خارج المنزل، وكأنها متأكدة من غيابي، وأنا لم أتحرك من سريري ولم أغادر غرفتي أبدًا.

عادت أمي تسألني نفس الأسئلة، هززتُ برأسي وأنا أنظر إليها مستغربة وأقول: لا أعرف ما تقصدين، أنا لم أغادر فراشي ولم أخرج من غرفتي أبدًا ولم أذهب إلى المدرسة، بالله عليكِ يا أمي أنتِ تمزحين معي صحيح. ؟؟

أحسستُ بتلك اللحظة أني أشتاق لأن أضمها إلى صدري بل أريد أن أتكور بداخلها لأعود كما كنتُ جنين برحمها، لأشعر تمامًا بدفء أمومتها التي أشتاقها اليوم بالذات، وفي نفس اللحظة أشتاق لأن أكون بحضنها، وشعوري بالبكاء على صدرها يخرج عن إرادتي، تغريني هذه الأمومة التي أحتاجها دائمًا معي، ولا تتركني أبدًا، سبقتني هي وقطعت كل الكلام وبادرتْ إليَّ تمد يديها تسحبني من فراشي وتضمني إليها، وضعتني بحضنها عدتُ إليها وهي تقول لي: مالك يا ابنتي أأنتِ مريضة .... أهناك شيء يؤلمك. ؟؟

تمسكتُ بها ولففتها بكلتا يديَّ أنا الأخرى، وأنا أقول لها: أشعر بأن جسدي كله يرتعش من البرد. أجل .... أجل كأني مريضة يا أمي ....ضميني إليكِ بقوة، دفيني

بحضنك أشتاق لحضنك يا أمي ورائحة عطرك الصباحي اشتقتُ لها. ضميني إلى قلبكِ ولا تتركيني أبدًا عديني بذلك، هزت برأسها علامة الإيجاب هدأت أمي قليلاً وهي تتأملني وتنظر إليَّ نظراتٌ فيها بعض الخوف .وها أنا أعود لأشعر بالأمان معها، رغم كل ما رأيته من خوف بداخلها تفضحه نظرات عينيها، وقالت هامسة حانية: وهي تقترب من رأسي وتقبلني: ماذا بك يا أبنتي لم أعهدك ضعيفة هكذا. أخبريني ماذا بكِ يا مريم ؟؟أه يا أمي: أشعر أن حرارتي مرتفعة، وجسمي ينتفض، وأنَّ بحلقي كتلة من الشوك لا أستطيع بلع لعابي. لامست يدها جبيني لتقيس حرارتي كما كانت تفعل وأنا أصغر سنًا من هذا العمر، ثم قربت شفتاها ولامست بهما شفتاي وجبهتي ثم قالت سخونة خفيفة يا مريم، لا تخافي يا صغيرتي، سأذهب لأحضر لك بعض الدواء تأخذيه مع صحن الحساء الساخن، وغدًا بإذنه تعالى تصبحين أفضل وتذهب عنكِ تلك السخونة والحرارة وتشفي تمامًا يا حبيبة أمكِ مريومتي الجميلة، قبلتني قبلة كبيرة وضعتْ فيها كل الحب الذي تحمله بقلبها الكبير وتركتني لوحدي وغابت لبعض الوقت وكنت خلال غيابها، أغفو وأعود لأصحو من جديد، سمعتُ خطواتها التي حفظتها غيبًا تقترب كأنها آتية من خيال، هكذا تراءت لي وأنا ألمحها وهي تدخل الغرفة وتتوه صورتها عني لتعود من جديد كالضباب يحجبها، كأن عيوني زائغة لا تركيز فيها، ها هي تحمل معها صينية عليها الحساء والماء والدواء، تناولت بيدها الحساء، أطعمتني وأعطتني الدواء، غطتني جيدًا وعدتُ للنوم من جديد لا ألوي على شيء سوى بعضٌ من الأحلام تتراءى لي بين غفوة وأخرى لأرى منزل فخم وحديقة وسور عالٍ وباب كبير يتحرك كهربائيًا، كأني دخلت هذا المنزل من قبل، لا أدري متى..!!استقبلتني سيدة جميلة ورقيقة، يفترض أنها أمي. لا أعرف كم من الوقت مضى عليَّ ومن الأيام مر، استيقظتُ صباحًا على زقزقة العصافير والشمس تنشر أشعتها الذهبية بدأت تتسلل إلى الغرفة لتشيع البهجة مع صوت أمي الحبيب ينادي الجميع على الفطور، وتحضير أنفسنا أنا وأخوتي للذهاب إلى المدرسة، حاولت الخروج من السرير لم أستطيع، قبل أن أُغادر الفراش بعد محاولات كثيرة، جاءت أمي تطلب مني العودة للفراش، تسألني كيف أصبحت اليوم يا مريم .؟ قلتُ لها: بدأتُ أشعر ببعض التحسن، طلبت مني ألا أذهب اليوم إلى المدرسة أيضًا، أسرعتُ بالرد عليها: لا يا أمي أصبحت أفضل بكثير من البارحة وستري الآن ابنتك ونشاطها، خرجت من السرير ذهبت الحمام وتناولتُ فطوري كالعادة مع أخوتي وأبي وأمي وذهبت بعدها إلى المدرسة ولم ألاحظ أي ظهور لمرافقي منذ الوقت الذي تركني به

البارحة، وعندما أنتهى الدوام وأنا بطريق عودتي إلى البيت سمعت صوت مرافقي يعود يهمس لي قائلا ألا تريدين الذهاب إلى أهلك يا صغيرة، كما وعدتهم البارحة؟ صرختُ به لا .... لا أريد أتركني بحالي ... أرجوك أتركني وابتعد عني وعن كل حياتي، لا تسمم ما تبقى منها ومن نفسي التي أرهقتها بألاعيبك وكذبك أيها الشيطان، أنت إبليس الرجيم، أخبرتك مليون مرة أني أحب أسرتي، لأني سعيدة بها ولا أريد تغيرها مهما كانت صحة كلامك، لا أريد تبديل أهلي وعائلتي الصغيرة التي أحبها وتعودتُ عليها. قاطعني قائلا: ستندمين أشد الندم. قلتُ له: أندم أو لا أندم مالك أنتَ ومالي أتركني قلتُ لك لا تسمعني صوتك أبدًا بعد اليوم، سأندم لو سمعتُ منك وذهبتُ معك هذه المرة أيضًا، تأكد أنني سأخبر أمي الليلة بكل شيء عنكَ. قال لا مانع لدي قولي لها وتأكدي أن ما أخبرتك به هو الصحيح، هي ستحكي لك قصتك كاملة، من أين جاؤوا بكِ، لو كانت تستطيع ذلك. قلتُ له: سأفعل .... سأفعل ذلك أقسم لك سأفعل .... تأكد أني سأفعل فقط لأرتاح من هذه الحالة التي أنا بها، أنتَ سببها وأرتاح منك وتحل عني، لقد تعبتُ منك ومن رائحتك النتنه وتهريجك السمج، أرجوك اتركني لا تتبعني بعد هذه اللحظة، أكرهك، وأشمئزمنك، لأنك كاذب ومخادع وليس لك وجود، شددت خطواتي مسرعة وعدتُ أدراجي إلى البيت، لأحتمي بحضن أمي من جديد، كانت تنتظرني بلهفة هكذا قالت لي، عندما وصلت طرقت الباب هذه المرة وفتحت أمي وفتحتُ لها ذراعي وأنا أقول لها لا تتركيهم يأخذوني منك لا تتركيهم، أخذتني إليها وهي تسألني: ماذا بكِ يا صغيرتي أخبريني من البارحة وحالك لا يعجبني كأن بكِ شيء تغير، كأنكِ تتألمين، ماذا بكِ بالله عليكِ أوقعتِ قلبي أرضًا يا مريم، أخذتني من يدي إلى غرفتها وكنا وحدنا في البيت لم يكن أحد من أخوتي ولا أبي، جلسنا معًا وأخذتُ أقص عليها كل ما حدث ويحدث معي من الماضي حتى اللحظة وهي تنصت لي وتسمع، إلى أن انتهيت وأنا أقص عليها أحداث البارحة بالتفصيل وأين كنت بتلك الفترة التي غبتها عن البيت بعد المدرسة، تأملتني دامعة عينيها كانت وقالت لي: سأقص عليكِ حكايتك وحكايتي يا ابنتي تعالي لنجلس ونتكلم سويًا أصبحتِ بعمر يسمح لكِ بأن تعرفي الحقيقة كاملة. وبدأت تحكي القصة من أول يوم لولادتي وتقول: كنتُ وأياكِ مفصولتين عن بعضنا أنا بغرفة خاصة بعد ولادتي لكِ، وأنتِ أخذوك للحاضنة لأنك ولدتِ قبل أن تكملي شهورك التسعة لذلك وضعوكِ بغرفة الأطفال الخدج بالحاضنة لثلاثة أيام، بعدها عدتِ لحضني وأخذت صدري ورضعتِ الرضعة الأولى وتعلقت روحي بك، وأنتِ فلذة كبدي، وبعد أيام من

خروجنا من المشفى زارتني إحدى الممرضات التي ناوبت يوم ولادتي لك. وقالت لي: أنها ستقول لي سرًا يجب ألا يسمعها أحد، طلبت مني أن أعطها عهدًا، بعدم افشاءه مهما حصل، أعطيتها وعدًا، أنني سأصون عهدي لها وأحفظ سرها ولن أبوح به لأيٍ كان، وعدتها بذلك، قبل أن أعلم بماذا ستخبرني وما هو السر الذي تخفيه عني، لم يخطر ببالي أن هذا السر يتعلق بي، إلى أن أخبرتني بما صعقني، وذهلتُ وجُمدَ الدم في عروقي، ماذا أسمع لا يمكن أبدًا، ما تقوله لي الآن فظيع، بعد أثني عشرة سنة تأتي لتقول لي أن المولودة التي ولدتها ماتت يوم ولادتها بساعات قليلة، والمولدة التي أعطوني إياها على أساس أنها ابنتي، هي ليست ابنتي بالحقيقة، إنها ابنة لعائلة الأم التي فارقت الحياة عند ولادتها، والأب مغترب ولا أحد يعرف مكانه أو أي شيء عنه، وأن اسم الأب هو مختار اليماني، وزوجته مديحة السالم، لم يأتي أحد للسؤال عنها منذُ دخولها المشفى مع قريبة لها، كانت بحالة خطرة، ولادة متعسرة، عندما جاء بها الإسعاف، أخبرتني أن الطفلة وضِعت بالحاضنة منذُ ولادتها ولها الآن ثلاثة أيام، وأضافت الممرضة أنها لم تخبرني بأن الطفلة التي ولدتها توفت بعد ولادتي لها بدقائق قليلة كان السبب بوفاتها كما ذكرت لي، أن المصران ملفوف حول رقبتها ومنع عنها الأكسجين، معنى كلامها أن طفلتي ولدت مخنوقة ولكنها أخرجت النفس الأخير بعد ولادتي لها بدقائق، قرروا عدم اخباري كي لا تتأزم حالتي النفسية وأدخل في حمى النفاس، كانت خائفة أن يحدث لي مكروه وأفقد حياتي مع طفلتي، نخرج من المشفى إلى المقبرة معًا، بهذا يكون عدد الوفيات لذلك اليوم التعس ثلاثة أم الطفلة وطفلتي، الحق بهم إن لم يكتب الله لي العمر، كان عليها أن تفكر بسرعة وتأخذ القرار الصح ليس لديها متسع من الوقت، هناك عائلتي تنتظر خارج غرفة الولادة، زوجي وعائلته وأهلي، الجميع ينتظر، لذلك بمجرد أن خرجت الممرضة سألوها: أين المولود كيف حال الأم، أخبرتهم أن الأم بخير وصحتها جيدة هي والعروسة الصغيرة، وجهت كلامها الأخير لزوجي قائلة له: ألف مبروك ولدت زوجتك بنوتة جميلة وهي الآن بالحاضنة، لأن أشهر الحمل ليست كاملة، هكذا كانت القصة كما روتها لي الممرضة المسؤولة، بالشكل الذي ذكرته لك، ولم يعلم أحد بالموضوع. وسارت الأيام والسنين بنا، وأنت تكبرين أمام عيوني، أنا وحدي يعلم الحقيقة، كبرتي يا طفلتي الجميلة وأصبح لك ثلاثة أخوة تحبينهم ويحبونك ولم يحدث أن أحد سألنا عنكِ لذلك لم يكن هناك أي داعي لأخبرك بهذه القصة، وأُشغل بَالكِ وأسمم حياتك الهادئة التي تنعمين فيها مع عائلة تحبك وتحبينها، وأيضًا والدك لا يعلم الحقيقة وأنت تعرفين أنه يحبك أكثر من

أخوتك الذكور لأنك ابنته البكر وفرحته، وأنت عنده بالدنيا كلها.

ولكن الآن يا ابنتي بعد أن أخبرتني بما يحدثُ معكِ، كان من الواجب عليَّ أن أخبركِ بالحقيقة أقول وأعترف لك أن ما أخبرك به الرجل الغير مرئي كما تقولين، وأنكِ لا تعرفين شيء عنه، أقول لك: أنه قال لك الحقيقة وكل ما أخبرك به صحيح، الآن ماذا تريدين مني أن أفعله لك، سأفعله تأكدي من ذلك يا حبيبتي .؟لو كنت ترغبين بالذهاب إلى تلك العائلة التي هي عائلتك أيضًا مرة ثانية أذهب معكِ وأحكي وأخوتك إن كان لك أخوة وأخوات، ولكننا لا نعلم مدى صحة نسبهم، وهل هم حقًا عائلتك، إن كانت فعلاً هي عائلة مختار اليماني، أم أحدً غيره يدعي ذلك ويحمل ذات الاسم والكنية، وربما يكون مختار اليماني نفسه قد عاد من غربته، بعد هذه السنين وتغير وضعه وأصبح غني ومقتدر وذا عز وجاه ومال، من يدري يا ابنتي، إن كان هو حقًا فهو لا يعلم أن له ابنة مؤكد هو لا يعلم شيء عن ابنته وزوجته التي توفت بنفس اليوم والساعة، أو إنه علم ولم يكن بيده أية حيلة للعودة بذلك الوقت، ولن ينفع شيء بعد أن أخبروه أن زوجته والمولود توفيا معًا، كل شيء جائز يا ابنتي لا تحزني لو كان يعلم بوجودكِ على قيد الحياة، لكان بحث عنكِ، لو كنتِ تحت سابع أرض، الآن أصبح من الضروري أن تذهبي إليه وأنا سأكون معكِ لن أتركلكِ وحدكِ تواجهي هذا المصير الغامض، نحن لم نكتشف غموضه بعد، سنذهب إليه معًا، ونتعرف عليه وعلى حقيقة شخصيته ويحكي لنا قصته، إن كان هو فعلاً والدك مختار اليماني المهاجر منذ ثلاثة عشرة عامًا، إن كان هو فعلاً ترك زوجته وهاجر من الفقر لتحصيل رزقه والعودة إلى عائلته، نُعرفه على أنفسنا ونشرح له الحقيقة، بذلك نكون قد تعرفنا عليه وعلى قصته أولاً. ما رأيكِ يا مريم. ؟؟كنت أستمع إليها بإصغاء تام، أتابعها منبهرة، لا أصدق ما أسمع، برغم أن القصة كانت بالنسبة لي قريبة من الحقيقة حتى أني كدتُ أصدقها لوهلة، وأعود لأكذب هذا المجوسي النجس كما أسميته، بالنهاية كان الرجل الهلامي المجوسي الوهمي على حق حين أخبرني بحقيقة نسبي ومن هم أهلي. ؟؟ كلام أمي أذهلني، لن أصدقها، هي أيضًا تغالط نفسها، كأنها تكذب عليَّ وتسايرني كعادتها حين أتشبث برأي أو بفكرة ما، لا يمكن أن يكون حقيقة ما تخبرني به وبهذه البساطة تقول لي أنها ليست أمي لا ... لا إنها تكذب، نظرتُ إليها نظرة عتاب، عندما أعادت سؤالها عن رأيي، قلتُ لها: والدموع تملأ عيوني وتخنقني العبرات، لا ... لا يا أمي لن أصدقكِ هذه المرة، أنت وحدك أمي، وكل هذه القصة التي رويتها لي الآن، ليس لها أية صحة، ولا وجود، قولي إن ما أخبرتني به كذب. وأنكِ أمي.

ولن تتركيني لأحد مهما كان ومهما حصل، وهجمتُ عليها وأنا أرتعد ضممتها إلى صدري وقلبي ... وأنا أقول وأردد: أنتِ أمي .... أنتِ أمي .... وحدكِ أمي لا أريد أمٌ أخرى، لا أستطيع أن أكون بحضن آخر غير حضنك أنتِ أُحبكِ لا تتركيني ابدًا. أخذتني لحضنها ضمتني بشدة وهي تقول: أنا أمكِ يا مريم، أنا أمكِ فعلاً يا صغيرتي، لا تبكي هكذا يا حبيبتي. قاطعتها قائلة : لكن كيف ... كيف يخترق هذا الشبح حياتي ويلاحقني كل هذه المدة ليكشف تلك الحقيقة التي لا يعرفها أحد من البشر سواكِ والممرضة، أليس ذلك صحيحٌ كما ذكرته لي، وأيضًا قلتِ حتى الطبيب لا يعرفها، وأنا لا أعرف من أي الفصائل هو تابعي ... كأني أعيش بوهم وأصدق ..؟؟

حتما إنه ليس من البشر، وأينٍ تكون مادته، لا يمكن لعقلي أن يستوعب بتاتًا ما يحدث معي، أخذتني أمي إلى حضنها تربتْ على كتفي وتضمني وهي تقول لي: أنتِ أبنتي حبيبة عمري، رفقية ايامي الحلوة والمرة، منذ ولادتي لك أتابعكِ لحظة بلحظة، لا شيء بالدنيا يستطيع أن يمنعني عنكِ، ويمنعك عن أهلك الحقيقين هذا إن وجدناهم يا مريم. كنتُ أتأملها، وأقول لنفسي لن أفارق هذا الحضن الدافئ أبدًا، أُتابعها وهي تروي لي القصة كما تحب لترضيني، أعرفها تمامًا كيف تفعل المستحيل لترضيني، وأنا معجبة بها وبعبقرتها كعادتي. عندما انتهت أخذتُ أقبلها وأضمها كما تضمني لأعطيها بعضًا من حبي وحناني أنا أيضًا، كما تفعل معي دائمًا بلحظاتي الصعبة. قلتُ لها: أنتِ هي أمي التي أعرفها وأحبها وليس لي بالدنيا كلها سواكِ، كم تعذبتُ يا أمي وأنا أخفي عنكِ سري خوفًا من إيلامكِ أو جَرحكِ، خوفي عليكِ كان أكبر من خوفي على نفسي، مما جعلني لا اصدق أن أحدًا يمكنه أخذي منك ويحرق قبلك الكبير على فقدانك لي. كنتُ أعرف أنك تموتين من القهر لو كانت القصة حقيقية، كنت ستتألمين كثيرًا يا أمي لذلك استنكرتها عندما سمعتها. قالت: لا عليك يا ابنتي، بالنهاية سيظهر أحد يسأل عنكِ، لو أن أحد أخبرهم بما حدث يوم ولادتك من ثلاثة عشرة سنة تقريبًا لكنا إلتقينا بهم من مدة، أنتِ اليوم أصبحتِ صبية جميلة، بل رائعة الجمال ربما أنكِ تشبهين أحد والديكِ، وربما أمك التي توفيت وقت ولادتك وتكوني امتداد لها ولأسرتك، ومهما حدث ستظل محبتك بقلبي لا تتغير وسيأتي يوم وتفارقين إلى بيت زوجك وبكلتا الحالتين ستبعدين عني، ولكن ما يعزيني أنكِ لن تنسي أمكِ التي ربتك، أليس كذلك يا مريم. ؟؟

قلت لها: وأنا أحضنها بعيوني، أجل يا أمي ... أجل يا حبيبتي ليس لي أم سواكِ، وإن كان لي أم ثانية حقيقة، فأنا لا أعرفها، منذُ ولادتي تركتني مهما كان السبب، أنتِ

أمي التي فتحتُ عيوني وأنا بحضنه أكبر، وإن كان لي أم حملتني ببطنها وماتت عند ولادتي، هذا ليس ذنبي لأن أدفع اليوم الثمن وحدي وأبعد عنكِ لا أستطيع أرجوكِ يا أمي لا تتركيني أنتِ أيضًا، لم يساعدني الحظ لأن أتعرف عليها لأنها في الجنة عند رب العالمين . في تلك اللحظات العصيبة من المصارحة وجها لوجه، الحديث جارٍ بيني وبين أمي بكل ما فعلته بوعي أو بدون وعي مني أعترف لها، سمعتُ صوته يتهادى كلسع قوي على أذني، تجاهلتُه مرات ولكني صعقتُ، ماذا أقول لأمي كيف أرفع صوتي لأتكلم معه وأرد عليه، عند ذلك ستعرف أمي أنني أتواصل مع شخص غير مرئي فعلاً، وليس وهمًا، وهو لن يظهر لنا أبدا. قاطعتني أمي من أفكاري تسألني: ماذا بكِ يا ابنتي، ماذا أصابكِ لماذا تغير لونكِ. ؟؟ قلتُ لها متلعثمة، لا شيء ... ليس بي ... لا أحد ..أخذت أمي تنظر إليَّ وتقول ردي عليَّ يا ابنتي ماذا بكِ؟ أنا بخير... بخير يا أمي أرجوكِ اتركيني وحدي وأخرجي الآن ... أرجوكِ، أو أنا من يخرج من هذه الغرفة أو هذا المنزل كله، لا تهتمي وأخذتُ نفسي وخرتُ من الغرفة، ولكن أمي تبعتني بخطوات هادئة كانت تسير ورائي بصمت، لم أشعر بها إلا وهي تدخل غرفتي بعد أن دخلتها وأغلقتُ الباب خلفي وأخذتُ أتكلم وأرفع صوتي قليلاً أرد على الرجل الهلامي وهو يهددني بأنه سيأخذ روحي ويحرمني من أمي لو أنا ذهبتُ معها إلى منزل مختار اليماني، فُتح باب الغرفة ودخلت أمي تتأملني وعلامات الدهشة والغرابة تسبق نظراتها وهي تسألني مع من تتكلمين يا مريم تلعثمتُ للمرة الثانية ولم أستطيع النطق بأي حرف، وحاولتُ مرات أن أتكلم أفتح فمي أحرك شفتي دون فائدة وكأن لساني مربوط، أخذتُ أبكي بخوف لا أعرف ماذا حصل لي وأمي تقول لي أهدئي يا مريم أهدئي يا ابنتي وضمتني إلى صدرها تمسح دموعي وهي تقول لي جهزي نفسك لنذهب للطبيب ونعرف ماذا بكِ ولماذا لا تستطيعين الكلام وأخذت المحمول واتصلت بوالدي وطلبت منه أن يأتي حالاً ومن ثمَ اتصلت بالطبيب بعد أن سألت عن عنوان طبيب نفسي من أحد معارفها هكذا قالت لي، وجاء والدي وذهبنا معًا، ولم يتحدث معي والدي بشيء ولم يسأل ما بي إلى أن وصلنا عيادة الطبيب دخلنا معًا أنا وهما، طلب الطبيب من أمي وأبي أن ينتظراني خارجًا أو بإمكانهما الذهاب والعودة بعد ساعة من الآن، بذلك الوقت تعلقت نظرتي بأمي واقتربت منها أمسك بها وحاولتُ الكلام ولم أستطيع، ربتتُ على كتفي وقالت لي: لا تخافي ننتظرك بغرفة الانتظار يا حبيبتي سأعود لآخذك معي إلى البيت، فقط لندع الطبيب يعرف السبب بعدم استطاعتك النطق والكلام فجأة، كل ما أرجوه منك هو أن تحكي له كل شيء، كل ما حدث معكِ منذُ جاءت

جارتنا أم محمود تسألني بخصوص ابنتها سلمى. ذهبت أمي مع أبي، بقيتُ وحدي مع الطبيب، طلب أن أجلس على كرسي عادي وأخذ يسألني بعض الأسئلة عن طفولتي وعن صديقاتي وعدد أخوتي وجارتنا أم محمود وسلمى، وأنا أرد عليه بالإشارة مرات وبيدي مرات أخرى إلى أن تعبت من الأسئلة وبدأ النعاس يظهر عليَّ فأخذ الطبيب جواله واتصل بأبي وطلب منه أن يأتي ليأخذني، والجلسة انتهت اليوم، وانتظرت ريثما وصل أبي وأمي ذهبتُ معه وصلنا المنزل وأمي تمسك بي وتحيطني بيديها، ولم تتكلم بأية كلمة، دخل أبي غرفة الجلوس وأمي أخذتني إلى غرفتي وساعدتني في تغير ملابسي ورقدتُ في السرير ولم تتفوه ببنته شفه بقيت صامته وأنا لا أستطيع الكلام، أحكمت غطائي جيدًا وقبلتني بحب ومسحت على شعري وهي تقول: غدًا لنا لقاء آخر مع الطبيب وإن شاء الله تحدث معجزة وتعودين للكلام، ستتكلمين غدًا إن شاء الله يا حبيبتي وأسمع صباحك المعتاد لي مع قبلة الصباح، تركتني لهواجسي وأغلقت الباب وراءها وخرجت. في ذلك الوقت كان النوم قد غلبني ورحتُ في سبات عميق ..... استيقظتُ صباح اليوم التالي على خطوات أمي حين دخلت الغرفة صباحًا وازاحت الستائر لتدخل الشمس كعادتها كل صباح، تملأ الغرفة بالحياة والأمل، ورأيتُ أمي تتقدم نحوي حضنتني وقبلتني قبلة الصباح وقالت لي هيا يا حبيبتي لنتناول الفطور معًا، وأن أبي وأخوتي ينتظرونا، خرجتُ من سريري ودخلت الحمام لأنظف أسناني وأغسل وجهي رافقتني لتساعدني وهي تقول لي: هيا يا طفلتي الصغيرة، لدينا موعد مع الطبيب اليوم يا حبيبة، لا تنسي ذلك، فتحتُ فمي لأقول لها: أني لا أريد الذهاب معها إلى أي مكان، نسيتُ تمامًا أني لا أستطيع الكلام، منذ مساء البارحة، تذكرتُ ما حدث لي، لكني فوجئتُ كما فوجئت أمي أيضًا، أنني أسمع بصوتي حشرجة خفيفة غير مفهومة، جمدت أمي في مكانها وقالت: الحمد لله، ألف الحمد والشكر لك يا رب، هيا يا ابنتي تكلمي ما شاء الله عليكِ، كنت أعرف أنها محنة وتزول قريبًا، ها هي قد زالت إن شاء الله، يا رب الطف بوحيدتي الصغيرة ولا تُريني فيها أي مكروه، ألا ترين يا مريم هذه النتيجة الرائعة التي وصلتي إليها من زيارتنا للطبيب البارحة، مفعولها كالسحر، أفادتكِ كثيرً، ستتكلمين بإذن الله، بشكل جيد بزيارتنا الثانية للطبيب، ستكون اليوم، لنا موعد معه أطمئني يا صغيرتي. تحقق حلم أمي، من خلال زيارتي الثانية للطبيب، ذهبنا معًا، أنا وهي لوحدنا، لم يذهب أبي معنا هذه المرة، لأن أمي طلبت منه ذلك وقالت له أطمئن مريم ستكون بخير، قالت له ذلك بعد أن اطمأنت عليَّ.

لم تصمت أمي أبدًا ونحن طريقنا للطبيب، أخذت تتكلم وتتكلم لأرد عليها بأبسط العبارات حسب استطاعتي وحشرجت صوتي الذي لم يتعدى حنجرتي ليخرج منها كما كان، ولكنها كانت تفهم العبارات التي أقولها وهي سعيدة، سعادة لا توصف، هكذا حتى وصلنا العيادة، كانت تعجُ بالمرضى النفسيين، بل على الأصح هي عيادة للصحة النفسية، وليست للأمراض النفسية، هكذا كتب على لوحة المعلقة خارج العيادة، لم يمضي وقت طويل من الانتظار حتى جاء لأن لنا موعد مسبق معه، دخلت غرفة الطبيب وحدي أيضًا للمرة الثانية وأمي بقيت بغرفة الانتظار، تنتظر انتهاء المعاينة أو المعالجة لا أعرف بالتحديد، لكنها كانت قلقة عليَّ، كنتُ أشعر بها،

تعد مرور الوقت بالثواني ليمضي وتراني أتكلم وبشكل جيد كما كنتُ وأحسن، بل يجب أن أكون أفضل هكذا كانت مؤمنة بشفائي.

بدأ الطبيب أسألته المعتادة التي يسألها الطبيب للمريض بالزيارة الثانية، أخذ يتأملني وهو ينظر إليَّ وينتظر أن أومئ له بالموافقة أو الرفض على أسئلته، وهو يتابع ما توقفنا عنده البارحة، فتحتُ فمي، وبدأتُ أحرك شفتاي، دهش الطبيب وقال لي: لا بأس ... لا بأس من المحاولة يا مريم، هكذا تساعدين نفسك بإصرارك وتحدي نفسكِ، ولو أني أستبعد أن تحدث معجزة بالوقت الحالي وتتكلمي، فلا زال الوقت مبكرًا ليعود لكِ نطقكِ كما كان، ولو بنسبة بسيطة، أعتقد أنه صعب الآن، لكن المحاولة لن تضرك أبدًا، هو استرسل بكلامه وأنا أتابع ما أفعل وأحرك فمي ولساني وشفتاي، رأيتً أنني أتكلم، وأسمع صوتي ضعيف كان في البداية، لكنه صوتي الذي أسمعه وأعرفه ولكن ليس بالشكل الذي تعودت عليه، بدأ نطقي يتحسن تدريجيًا، ذُهل الطبيب من المفاجأة، لم يصدق أنني أنا التي أتكلم أخذ ينظر بكل مكان بالغرفة وهو يقول أيوجد أحد آخر هنا ...؟

لعلى الممرضة لم تخرج بعد ويزداد ذهولًا، ويقول لا أصدق، هذا أنت يا مريم التي تتكلمين ...أهو صوتكِ. ؟؟

قلتُ له: أجل هو صوتي، لكنه ضعيف بعض الشيء أخذ يلاحظ وهو يشير لي بيده أن اتابع الكلام أي كلام أريده، يلاحظني بصمت ويتابع وهو سعيد للنتيجة السريعة التي وصلتُ لها، كنتُ أرد على أسئلته الكثيرة، إلى أن توقف عن الكلام بعض الوقت، وتابع يقول: ما شاء الله، طفلة ذكية جدا أنتِ يا مريم ونجيبة، والديك يحبونك جدا، سأبوح لكِ بسري، ولكن عديني أن يكون بيني وبينكِ فقط، قلتُ له أعدك أن يكون بيني وبينك فقط يا دكتور، لن أخبر به أحد أبدًا الآن ولا لاحقًا أعدك يا دكتور، مهما

كان.

صمت قليلاً وأخذ نفسًا عميقًا ومن ثم قال: السر الذي سأبوح لك به يا مريم، هو أن والديكِ يعرفون تمامًا كل ما حدث معكِ، بكل الأحداث وتطوراتها خطوة بخطوة، تمامًا كما التي رويتها لي، صغيرها وكبيرها، كانت أمك تأتي لزيارتي كل يومين تقريبًا وتخبرني بكل التغيرات التي تمرين بها وأرسم لها الخطة التي يجب أن تسير عليها لتكون معكِ دائما تتابعكِ دون أن تشعري بها ومعها والدك، إلى أن بُحتي لأمك بالسر الغريب، والآن أستطيع أن أخبركِ وأقول لكِ، أن كل ذلك كان كأحلام اليقظة والخيال والتخاطر والحاسة السادسة والسابعة كما ذكرتي لي أنتِ وأخبرتني به، كل هذه الأمور صغيرها، وكبيرها ، كانت تسبب لكِ ضغط شديد على تفكيرك من كثرت قراءتك، واطلاعاك، ومتابعتك، لتللك الظاهرة الغريبة، والتي شدتك منذ صغرك لأحداث وقصص وأمور حدثت للغير وسمعتها من الأشخاص أنفسهم، خذنها عقلك الباطن، وجاء بها عندما طلبها عقلك الواعي، أو أخذ له استراحة مؤقته فأخذ عقلك الباطن حريته وفعل ما فعله بك على مراحل بحسب حاجتك عندما أردتِ الهروب من واقعكِ وحصل لك ما حصل. هو علم الظواهر والخوارق والميتافيزيقيا، هو علم أكبر منكِ، ولعمر أكبر من عمرك العقلي على الأقل. أؤكد لكِ يا مريم أنكِ صحيحة جسديًا وعقليًا ونفسيًا، عقلك يوزن بلد بل عالم بحاله كما يقول المثل. أليس هناك مثلاٌ يقول هذا. ؟؟نعم أسمع بذلك ...

سأحكي لك قصة قصيرة جدا يا مريم أفهمي جيدًا ما تقوله القصة، هي قصة ليست فريدة من نوعها أبدًا، كما أن التاريخ يروي لنا العديد من هذه القصص والكثير غيرها، سأحكي لك قِصة (جون ناش) عالم الرياضيات الشهير، الذي كان مصابًا بمرض عقلي جعله يتخيل طوال سنين دراسته في الجامعة أن شخصاً ما كان يعيش معه ويحادثه في غرفته، إلا أن هذا كان وهماً حقيقياً لا صحة له، وعلى النقيض من ذلك كان عالِمًا ترفع له القبعة في مجال الرياضيات، وكان هناك تصاحب بين المرض العقلي والإبداع، هذا ما يفسره العلماء . هناك دراسة تشير إلى أن بعض الناس الأصحاء عقليًا وأصحاب القدرات الإبداعية العالية، عادة ما يكون لديهم بنية دماغية مشابهة إلى حد ما للبنية الدماغية لمرضى الفصام الشخصي، حيث تمت دراسة أدمغة بعض المبدعين من بعض الأصحاء عقلياً فوُجد نقص واضح في مستقبلات الدوبامين في المهاد.(Thalamus)وهو المركز الرئيسي لاستقبال الأحاسيس المختلفة من الجسم وفلترتها، وتشابه هذا العرض مع أدمغة مرضى

الفصام الشخصي، مما رجح إمكانية لارتباط الاضطرابات العقلية بالإبداع الشديد، والتفسير المحتمل لهذه الحالة هو نقص في المستقبلات لمادة الدوبامين.

وقليل من عملية الفلترة التي يقوم بها المهاد مما يجعل المزيد من المعطيات الحسية تصعد إلى القشرة الدماغية لمعالجتها، هذا يقود إلى الإبداع والإلمام بالتفاصيل الدقيقة أكثر من الأشخاص العاديين، هذه حالات تمر بنا كثيرًا كأطباء.

توقف قليلاً ومن ثُمَ تابع يقول: ليس لديكِ أي مرض صحي يا مريم، أنا واثق من ذلك. لا نفسي ولا عضوي أبدًا. أحسستُ كأنه عاد يتابع كلامه الذي أخبرني به قبل برهة ليرمم خطأ ما قاله، بين مجمل كلماته السابقة، لماذا يشرح لي عن هؤلاء ما خصني بالعلماء والمبدعين والانفصام والعاديين لماذا يأخذني إلى هذه المتاهات. أخذني صوته الهادئ من تلك الأفكار التي كنتُ بها لأركز معه، عدتُ لأتابعه وهو يمدح بي ويصف صلابتي وقوة إرادتي برغم تأثُري الكبير بتسلسل الأحداث التي مررتُ بها والغير مباشر كان حدوثها، لكل ما يجري حولي. توقفتُ عن متابعته وسألتُ نفسي يثني عليَّ ويحبطني بنفس الوقت، إلى ماذا يريد أن يُوَصَّل ليَّ، من خلال الرواية التي قّصَّها عليَّ واتبعها بموضوع الإبداع ونقص هرمون الدوبامين، ماذا يريدني أن أفهم من كل هذا اليوم..؟؟

هل يريدني أن أفهم لوحدي أنني مصابة بخلل دماغي، أو مصابة عقليًا بمرض عقلي، انفصام بالشخصية مثلاً كما يقول، وكما ذكر عن قصة ذلك العالِم الرياضي ماذا يريد .؟؟وما يفرزه العقل لقشرة الدماغ أنا لستُ عالمة رياضية ولستُ مبدعة ولا مخترعة لشيء ما ،أنا أبكي على حالي . وأبكي على الوضع الذي وصلتُ إليه، اعتقدتُ أنه من تراكم سماعي لتلك القصص الوهمية التي عاشت معي بطفولتي ونسجها خيالي الواسع وتبناها، هذا كل شيء، على ما أعتقد، أو أنني ممسوسة بشيطان يحتل كياني . ساءني جدا ما قاله لي الطبيب اليوم، وحطم معنوياتي القليلة الموجودة، والذي تبقى من ثقتي بنفسي وبأني صحيحة عقليًا ونفسيًا. لكنه شدني من أفكاري حين بعدتُ عنه ، وضعني أمامه وركز على أفكاري يرسل لها أفكاره ، ربما شعر بعدم ثقتي بنفسي من خلال نظرات عيوني التائهة وبين ملامح وجهي وهي تبحث عن تفسيرات وتدينه بنفس الوقت.؟

أخذ يقول وكأنه قرأ أفكاري: أنتِ شيء مختلف عن تلك القصة يا مريم روايتي لها لا تعني بتاتًا أنها تشبهك أبدًا ، أنا فقط أروي لك بعض مما يحدث لعلماء كبار، ولا يجب إثارة الخوف لديكِ هذا مالم أقصده حتمًا، ما حدث معكِ يا مريم شيء عادي

بالنسبة لعمرك الصغير، كبرتِ وأنت تتابعي تلك القراءات وما زاد من ذلك، أو إنه كان السبب الأساسي، هو ما حصل مع سلمى صديقتك وجارتك المقربة كما ذكرتْ لي أمكِ، وعندها أحسستِ أنها أخذت حيزكبير من حياتك الخاصة، أهمها اهتمام أمك وحبها لكِ، أيضًا كل الأحداث الغريبة عليكِ، وكنتِ تسمعين عنها بتسلسل غريب أيضًا، من صديقات والدتك، فحاول عقلك الباطن تخزين ما كان يحدث معهم وهو يمزجها ويخلطها مع قراءتك وخيالك الواسع لهذا النوع من القراءات والمتابعة لها عن طريق النت والطرق المرئية كالتلفزة وغير المرئية كحكايات جدتكِ، تشدك الأفلام الشبيهة بما يحدث معكِ، وكذلك أنتِ ساعدتِ عقلك الباطن ليسيطر على عقلكِ الواعي عندك ويسرح بكِ، ما شاء الله عنكِ، كيف استطعتِ أن تعيشي تلك الفترة، كيف اخترعت وجود شخص أعطيته أهمية كبيرة لتأخذي لنفسك مكانة خاصة وأهمية ليس لها حدود، وأسميته بالرجل الهلامي، وأحيانًا المجوسي، أسماء اخترتها أنتِ بمزاجك الخاص ليكون لكِ متسع من الطاعة تخضعي لشخص وهمي، ليكون تجسيدكِ له حقيقة وواقع أمام ضعفكِ. ربما أنكِ افتعلتِ ذلك لتشدي اهتمام وانتباه والدتكِ إليكِ، لأنها أمك لوحدك أنتِ، لن تسمحي لأحد أن يأخذ منكِ أي شيء حتى لوكان جزء من اهتمامها لكِ، ولن تتركيها لأن تكون لغيركِ، تلك هي قصتك يا مريم، كبر معك الخيال توسع لدرجة أنه أصبح عالمكِ الخاص، تعيشيه وحدكِ بأعماقك كنوع من التوحد أنتِ اخترته. لا تنسي أيضًا يا مريم أن هناك شيء مهم، وهو سعة أفكارك اللا محدودة، وهي التي أخذت تنسج الخيال بكل هذا العمق، أُرجح أنه يجب عليكِ أن تضيفي كل ما حدث معكِ لبحثك ودراستك وتخصصك بهذا العلم، وأعتقد أن هذا ما سيحدث لفتاة تحمل كل هذا الذكاء ولكن المهم بالأمر هو أن تعرفي كيف تستخدميه خارج عن حياتك اليومية، وهو الأهم يا مريم.

كلامه كان حافزلي لأشرح للطبيب الحالة التي كنتُ أمُرُبها بعض الأوقات، تأتني حالات كنت أستيقظ فيها صباحًا وأنا أشعربكسل وعدم رغبة في الخروج من سريري، وأيضًا أجد صعوبة شديدة في النهوض والخروج للقاء بأهلي، ولكني أنهض أخيرًا تلبية لرغبة أمي وأكون فاقدة لنشاطي المعتاد، وهي تحفزني برغبة الجميع لنكون معًا على الفطور وتؤكد أن هذا ما يريده والدي ولا يشعربالسعادة إلاَّ بوجودي معهم أشاركهم صباحهم كعادتنا، وينزعج جدا حين الوذ بغرفتي ويكره هذه العادة التي أقوم بها بعض الأحيان، ويحب دائمًا أن يجمعنا الصباح قبل ذهاب كل فرد من العائلة لعمله

ومدرسته كما تعودنا، وتؤكد لي أن ذلك سيغير من مزاجي المتعكر والغير الراغب في مشاركة أهلي صباحهم وفطورهم وتقاعسي في الذهاب لمدرستي، وتؤكد لي بقولها: لو بقيت على وضعك الصباحي هذا من بداية يومك، لن تقوم بأي إنجاز مهم خلال نهارك كله يا ابنتي ثقي بي يا حبيبتي، وأنصاعُ لها وهي تحضنني وتقول لي بعد أن أفعل كل ما تطلبه مني: ألا تلاحظ معي يا مريم أنك الآن أصبحتِ بحالة أفضل بكثير من تلك التي كنت عليها في الصباح.؟

وأرد عليها بنعم وأنا سعيدة لما وصلتُ إليه ، وأتمسك بقربها مني أكثر لتحميني من أوهامي. فما الذي تغير؟؟

هذا ما سألتُ الطبيب عنه لا حقًا وأدهشني عندما أجابني أن منسوب الدوبامين في جسدي، تم تحفيزه بمجرد التفكير في أهلي وأخوتي منذ مساء اليوم السابق، لكن هذا التفعيل لم يأخذ مجراه فوراً، وإنما بدأ بشكل متدرج ليصل إلى قمته بعد أن قمت بعدة نشاطات لتحفيزه كالتفكير بعائلتي الصغيرة، وحديثي مع أمي عنهم وبأني لستُ وحدي ، وتناولي كوب القهوة الذي جلبته أمي لي، وغير ذلك.. جعلك تندمجين في بيئة الحياة من جديدة، وعودة الحافز لديكِ، مما حقق إنجازات جيدة لكل وصلنا اليه معًا، أهمها أنك عدتِ للنطق من جديد وبسرعة غير متوقعة، خلال الأسبوع الذي مضى والأيام التي تلته. ودعني الطبيب وهو يقول لي انتبهي لنفسك يا مريم ولا تنسي ما قلته لكِ فكري به جيدًا، لا تقطعي زيارتك عني، ترددي على بالعيادة بين فترة وأخرى لنتناقش بأمور كثيرة تجمع أفكارنا، قلتُ له نعم يا دكتور سأفعل إن شاء الله. خرجتُ من غرفة الطبيب ودماغي مصدعه من كثرة ما قاله لي، كانت أمي تزال بانتظاري بغرفة الانتظار حضنتها وذهبنا معًا إلى رستراند كالكبار، كنتُ أحاول التقرب منها كصديقة أرتاح لها وأحتاجها.

كان ذلك بعد أن طلبتُه منها، وأنا أقول لها: أرجوكِ يا أمي أريد أن نجلس أنا وأنتِ معًا كصديقتين نأخذ بعض القهوة ونتحدث معًا كما تفعلين مع صديقاتك، كم أرغب بذلك لأحدثك عن الكثير من الذي يتعبني ويتعب ذاكرتي، وأريد أن أفضفض لكِ، لأخرج كل ما يرهق نفسي ويتعبها لأرتاح. رحبت بالفكرة وهي سعيدة واتجهنا إلى رستراند أخذنا طاولة تطل على حديقة مليئة بالزهور تعبق رائحتها بعطور جميلة حولنا وطلبت لنا من النادل قهوة، دون أن تسألني كأنها أحست أنني أريد أن أكبر لآخذ دور الصديقة المقربة لديها ، كنتُ لأول مرة أشارك أمي قهوتها، وأستطعم ذلك المذاق الذي لا تستطيع التخلي عنه مع سيجارتها، وأخذنا نرتشف قهوتنا معًا

ونتحدث كالكبار، كان ذلك بعد أن اتصلت بأبي وأخبرته أني بخير وغادرنا عيادة الطبيب وأننا نشرب قهوتنا معًا وخلال ساعة على الأكثر نكون بالبيت، رحب أبي بالفكرة وشكر أمي لأنها تهتم بي وتتعامل معي كما لو كنتُ صبية ، وقال أنه ينتظرنا بفارغ الصبر وطلب ألا نتأخر أكثر من الساعة التي حددتها له أمي، هذا ما فهمته من كلامها مع أبي.

بدأتُ حديثي مع أمي وأنا أقول لها: ما رأيكِ.؟

لقد رسخ بعقلي وفكري، كلام الطبيب المعالج بخصوص مستقبلي الدراسي.

أو لنقل إنه زرع البذرة الأساسية التي وجهتني فيما بعد لأن أختار بدقة موضوع دراستي وتخصصي. !!

هكذا بدأتُ حواري معها وأنا أقول لها وبثقة: لقد عرفت الآن أن عقل الإنسان لغز محير وهو في حالة تخاطر دائم وتجاذب مستمر تُعبر عنه تصرفاتنا الغير مفهومة لنا أغلب الأحيان، ونحن نتشابه بتركيبتنا كتركيبة وتقنية (البلوتوث) الحديثة بنواحٍ متعددة يا أمي.

منها أو أهمها، حين يستقبل العقل ما يُرسَل له من طرف غير معروف، كالتخاطر الذي يحدث معي بعض الأحيان، يأتيني لأستقبل طاقة صادرة من عقل شخص آخر لا أعرفه، يتم توصيله إلى جدران نفسي الخارجي ويهم بالدخول، ليبدأ تحليله لذبذبات وإشارات، من خلالها يتعرف الشخص المرسل على كل ما يدور في عقلي. باستطاعة هذا الشخص وغيره إرسال خواطره وإدخالها في عقول الآخرين، كما يفعل معي دون أن يكشفه أحد، وبدون أن يُظهرن شخصيتهن، لا حظتُ أنني أضيع من جديد في متاهة اللاوعي لكل ما يحدث لي من غرائب وعجائب، وأسألها لأتأكد من سوية عقلي أليس ذلك يا أمي؟ وترد عليَّ بهدوء واستسلام: أجل هو ذلك يا ابنتي .... هو ذلك ...كنتُ أُسهب وأسترسل بالحديث معها مستمتعة، وبأن أحدًا غير الطبيب المعالج يسمعني ويصغي لي، وأنا أحتاج لذلك حتمًا، وأحتاجه جدا، لكني لا أعرف مشاعرها تجاه تحليلي المستطرد والخيالي ربما بالنسبة لها، وأيضًا لا أعرف إن كانت أمي مستمتعة بحديثي هذا كما أنا، أخذتُ أسألها مستوضحة عن حوادث قديمة حصلت معنا أيضًا: ألا تذكرين يا أمي حادثة جرت معي، عندما كنتُ بعمري الخمس سنوات أو أكثر، قلت لك ذات مرة، أنني مشتاقة جدا لعمتي صفية هذه الأيام؟

ألاَّ تذكرين أنك قلتِ لي يومها: أنا أيضًا أشتاق لها، لقد مضتْ مدة طويلة لم نلتقي بها، وهي لم تأتي لزيارتنا كما عودتنا، هل تذكرتِ ذلك يا أمي؟

هذا هو التخاطر الذي أقصده، يجب أن تفهميني يا أمي أرجوكِ. ؟؟
أجل يا مريم أفهمك يا ابنتي ... أفهمك يا حبيبتي تابعي حديثكِ.

ما حصل لنا معًا، بشوقنا لعمتي التي كانت تسكن بمدينة أخرى ولم نراها من سنين مضت، عندما شدنا الشوق والحنين إليها، بنفس اللحظة إحساسنا كان واحد، وهذا تفسير ما مرَّ معنا، وأحسسناه من شوق. اسمه تجاذب لخواطرنا معًا وبنفس اللحظة، كأن تلك الذبذبات من الشوق وصلت لعمتي مع أرواحنا المتصاعدة، تحررت من أجسادنا التي كانت تسكنها، زارت والتقت مع روح عمتي وعبرت عن شوقها وقررت زيارتنا بتلك الفترة، ردت عليَّ أمي وهي تتابعني باستغراب، وتقول ربما يا صغيرتي .... ربما .هي لم تجزم أن ما ذكرته لها صحيح بدليل أنها قالت ربما .... ربما .... ماذا أفعل لأقنعها أن ما يحدث معي طبيعي يا أمي لا تخافي، لأني تعبت جدا، وأريد أن أرتاح. لذلك تابعتُ أقول لها: ألا تذكرين أيضًا أنني ذهبتُ يومها كالعادة إلى مدرستي، وكانت المفاجأة عند عودتي إلى البيت، فاجأني الشوق الذي انتابني وأصبح حقيقة، دخلت البيت، رأيتُ عمتي بزيارتنا، لم أصدق ركضتُ إليها ضممتها وأنا أقول لها كم اشتقت لكِ يا عمة....تذكرين يا أمي كيف بادرتني قائلة: وأنا أيضًا يا مريم يا حبيبتي، كأن هاتفٌ وصلني منك يدعوني لزيارتك، كنتُ أستغرب كل ما يحدث معي وأنا أكبر ويكبر بداخلي هذا الإحساس ببعض الناس المقربين والمهمين، تلك هي طريقة التخاطر مع الآخرين بدون هواتف نقالة وثابته، وبدون شبكة اتصالات سلكية ولاسلكية، لكنها كانت اتصالات روحية لأنها الأقوى. سأحكي لكِ يا أمي حادثة صغيرة مرت معي، وهي ليست غريبة عنكِ وربما تحدث مع الكثيرين أيضًا. في إحدى المرات، أخذتُ جوالي وقمت بالتفتيش عن رقم صديقتي المقربة زُها كنا بالمدرسة بفصل واحد كانت صديقتي المقربة بعد سلمى، كان لنا هوايات مشتركة تجمعنا، نويتُ الاتصال بها ذات مرة لأمر هام يشغلني، أردتُ مناقشتها به، لذلك قررتُ التحدث معها، بنفس اللحظة التي أمسكتُ بها الجوال، لأبدأ الضغط على اسمها المسيف عندي وقبل أن ألمس اسمها لأضغط عليه أخذ الجوال يرن، استغربت جدا بالبداية كيف يحصل هذا ..؟؟

كانت هي التي تتصل بي وبنفس الثانية، وليس اللحظة، فوجئتُ لأول وهلة، عندما فتحت الجوال لأرد، كانت هي، وكانت أول كلمة قلتها لها: يا للصدفة، كنتُ سأتصل بكِ حالاً، يا لهذه الصدفة العجيبة يا زُها تُرى القلوب عند بعضها كما يقولون يا عزيزتي ، ضحكنا وقتها معًا. لكني استغربت جدا، كيف يحدث معي هذا

أغلب الأحيان.

هذه الحادثة زاد حدوثها معي بشكل تلقائي على الأيام، مما جعل تلك الحوادث تتداخل ببعضها على مر الأيام. أتراني كنت أعللُ ارتباط تلك الأمور بالظواهر الخارقة للطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية للكون عامة؟ كثيرًا ما كنتُ أقول لنفسي: لا شيء يأتي من فراغ بالتأكيد لكل شيء سبب، والأسباب متعددة. هذه الظاهرة قد تكون غريزة فطرية، بعيدة عن الحواس الطبيعية، أو أن هناك أشخاص محددين يتميزون بتلك الظاهرة بسهولة ويُسر، لشفافية أرواحهم وإحساسهم وتركيزهم على من يحبون، والبعض الأخر قد يصل فقط إلى البداية ولا يستطيع أن يكمل إلى النهاية، هذا يرتبط بالصفاء الروحي والذهني، وبالإيمان الإيمان بوجود هذه القدرات وتأثيرها علينا، هذا ما حدثني به الطبيب أيضًا يا أمي وقد أكد لي أن كل ما حدث معي طيلة تلك السنوات، التي كنتِ تسميها أنتِ معاناة ومرض نفسي، هو شيء طبيعي وليس مرض، وأن هناك البعض من الناس بشفافية أرواحهم وهبهم الله هذه الهبة من حدة الذكاء الروحي والشفافية العالية للإحساس بالغير، عن طريق التخاطر، هو وحده من يجعلني شفافة الإحساس لأبعد حدٍ، وليس كل الناس لهم هذه القدرة على التخاطر والتجاذب، أيضًا ليست كل الأرواح تتألف وتتجاذب، عندما تألف الأرواح بعضها، تزداد الفرص لوجود هذا التخاطر والتجاذب للالتقاء الروحي، هذه المواقف والأحداث تجعل الإنسان منا يتأمل ويتفكر بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف. هي روح إذًا، الموضوع كله يتعلق بالروح، كانت تسحبني ببطء، تجرجرني إلى عالم غريب ومخيف كان بالنسبة لي، أجتمع فيه بناس غرباء، هائمين بفضاء بين الأرض والسماء يسبحون، لا لهم عالمَ ليسكنوه كعالمنا. مع مرور الأيام أوصلتني تلك الضغوطات النفسية، إلى حافة الهاوية من الانفصال الروحي والانفصام النفسي لأنسلخ عن ذاتي، هذا ما كان سيحدث لي لا محالة، ولأني تأثرت بها أوصلتني إلى متاهة لأبعاد لا نهاية لها حينها أحسستُ أني فقدتُ السيطرة على نفسي التي أصبحت مشروخة إلى أنصاف شخصيات ليس لها أسماء ولا مسميات، ليس لي شخصية واحدة أحملها، أو أتميزبها، لم يعد لي كركترخاص بي، أصبحتُ أنا نفسي، ضائعة عن نفسي، بين يوم وليلة فقدت الإحساس بما يشكلني كإنسانة صحيحة غير مشروخة، معافاة نفسيًا وصحيًا، سؤال واحد كان يحيرني، هل أنا معافاة نفسيًا وصحيًا كما قال لي طبيبي الخاص.؟

كيف استسلمت بهذه السهولة لخيالي وتركته يسرح بي، لأعيش تلك القصة معه بوهم الخيال، كيف ومتى استطاع ذاكَ الرجل الوهمي الهلامي المجوسي حسب تسميتي له. كيف استطاع السيطرة على عقلي وأفكاري، كيف أبعدني عن عالمي الصغير الذي لا زلتُ أُحبه، أشتاق له واحتاجه، بقدرة عجيبة مسكونة به، أم هو ساكنها، أبعدني عن أهلي وصديقاتي الصغيرات مثلي، لم يتركني أعيش عمر طفولتي معهم، كم كنتُ أحتاجهم لأشكي لهم عن همومي وأخبرهم عن سري، لكنه كان يضعني تحت مجهر تلسكوبه العجيب، يستمتع بتعذيبي وهو يراقبني، ويفرض تأثيره الغريب والمثير حولي، لا يمل من مراقبته لي. نظرات عيونه الثاقبة لم تفارقني، لا زلتُ أذكرها تمامًا وكأني أراها وأراه معها، كنتُ أراها بإحساسي، أشعرها تخترق مسامات جسدي الصغير بجنون وتسكنه، وعيون لرجل مهوس بشيء ما، يعيش بداخله ويخترقني، كنت أرى كل هذا بعين البصيرة وليس البصر، مخدرة كنت أتبعه فاقدة للوعي ولكل شيء حولي لأكون على كوكب هذه الأرض، أو من أحد سكانه، كنتُ أشعر أني من كوكبٌ آخر وعالمٌ آخر، لدرجة أني صدقتُ في الوهلة الأولى، قصته التي رواها لي بكاملها وكل تفاصيلها.

أرى نفسي اليوم، منفصلة تمامًا عن مريم، التي كُنتُها وكانت تعيشني من الأعماق، تفرح معي وتحزن معي، ونرى الأشياء كلها معًا، من أيام مضتْ كنا معًا، والآن هي تركتني وتتنازل عن وجودي تحت تأثير قوى عجيبة خارقة.! هذا هو التفسير الوحيد بالنسبة لي بكل غرابته، لم أفهم كيف كنت أنساق له، بتلك الانسيابية، مع كل هذا القلق الذي كان يسكنني بصمته المزعج، كنتُ أنتظر مجيئه بشوق لأسمع قصصه الخرافية، وأربطها بالقصص التي كانت ترويها لي جدتي زمان ، الخرافية البعيدةعن التصديق، وهو يخبرني بها عن حياتي التي لا أعرفها، أهو تعودي منذ طفولتي على سماع قصص جدتي، كأنها البديل عنها عندما أخذتني الأعوام لأكبر بعضً منها. ؟؟

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلتني أنساق له، وأمشي وراءه، لأسمع منه المزيد من قصص واقعه الخرافي، من أي نوع هو؟ من أي فصيل يتكون؟

إن كان فعلاً من الأرواح القيادية التي يمكنها أن تحمل مسئوليات ضخمة تعجز عن حملها الأرواح العادية، لِمَا لا يظهر لي..؟؟

وهو بتلك الحالة لن يتركني، لن يتركني أبدًا.

من أي نوع هو من الأجناس؟

الأرواح أجناس مختلفة كبيرة في قدراتها، تختلف بين روح وأخرى، في مواهبها،

في شفافيتها، في معرفتها وحكمتها، في صلتها بالله، مؤمنة هي أم كافرة ... كبيرة في مستواها وقدراتها لزمانها ومكانها، وفي عملها ومعاملاتها، وفي تأثيرها من وعلى غيرها، كما كان تأثيرها عليَّ. ؟؟ قولي لي يا أمي أخبريني الحقيقة لا تكذبي عليَّ أرجوكِ، أليس صحيحًا ما ذكرته لكِ الآن. ؟؟أجل يا حبيبتي صحيح، كلامك كله صحيح.

أليس صحيحًا يا أمي الكلام الذي قاله الطبيب وأخبرني به ..؟؟

نعم يا ابنتي صحيح تمامًا .... قلتُ لكِ إنه صحيح.

استوقفتني عن متابعة كلامي لها وقالت تقاطعني وكأنها مَلَتْ من حديثي: كم خفتُ عليكِ يا مريم تلك الفترة، وأنا أراقبك من بعيد، خاصة عندما كنتِ تتسللين ليلاً ، وتخرجين من البيت وأنا أمشي وراءك، أتبعك أنا ووالدك، لا نستطيع الاقتراب منكِ، ولا تركك ولا التواصل معك، كنا نخاف عليكِ، فقط، نراقبك ونتقدم منكِ عندما يحتاج الأمر لأن نتدخل لنحميكِ، لذلك لم نتركِ عندما كنتِ تفتحين الباب وتخرجين ليلاً، كأن معكِ أحد تتكلمين معه وتتبعينه، لم تكوني وحدكِ يا ابنتي أبدًا، كانت تلك تعليمات الطبيب لنا أن نتبعكِ، هو الذي طلب أن نراقبك ونتبعك عندما تغادرين البيت ليلًا، طلب أن نفعل ذلك كي لا نفقدكِ نهائيًا، وأحيانًا كثيرة كانت تأتيك الأحلام مع اليقظة بمنتصف النهار(تلك التي يقولون عنها أحلام اليقظة). كل ذلك يا مريم، جعلني أتابعك مع الطبيب كما ذكرلك بالتفصيل، قررنا العودة إلى البيت أخيرًا بعد أن انتهى فنجان قهوتي الأول الذي جمعني وأمي، وانتهت الساعة التي حددتها لأبي، أخذنا تكسي أوصلنا إلى البيت، كان الجميع بانتظارنا خاصة والدي الذي أخذني لحضنه وضمني وهو يقول لي: أنا هو مختار اليماني الذي يتحدثون عنه يا ابنتي ..أنا هو والدك الحقيقي يا مريم، بعد سنوات قليلة سيصبح لكِ بطاقة شخصية خاصة بكِ، وستعرفين عندها أنني والدك واسمك هو مريم مختار اليماني، نحن عائلتك التي تنتمين إليها هؤلاء أخوتك الثلاثة الذكور، وأنت الابنة الوحيدة، وزينة هذه العائلة ووردتها الجميلة لأنكِ الأغلى عندنا، ولأنك بكرُ أولادي وحبيبة عمري، أول من قالت لي بابا ومنحتني شرف أول إحساس بأبوتي، كانت أنتِ يا مريم. مضت السنين وأنا أكبر معها، والآن أصبح عمري خمسة وعشرون سنة، ولا يمكنني نسيان ما مر بي من مواقف وأحداث أخذت من عمري حيزٌكبير، من حياتي ومن اهتمامي، لذلك تابعت دراستي وتعمقت أكثر بهذا العلم (علم ما وراء الطبيعة، ومفهوم الكارما والدوبامين) وغيرهما من العلوم الحديثة، التي لم أكن لأسمع عنها، لولا مشوار طفولتي وصعوبة فهم ما مرَّ بي. في الماضي لم يكن عقلي الصغير يستوعب تلك المفارقات الكثيرة التباين

وغريبة المنطق، رغم خضوعي وتعمقي به مع مرور الأحداث وتواليها. كلام الطبيب لي في ذلك اليوم، كان السبب الأساسي والأهم في التحول الذي حصل معي في ترسيخ الفكرة من بدايتها، كبرت معي نصيحة الطبيب، وزادتني قناعة، لأن أهتم بأن تكون دراستي حول هذا العلم.

على أن أختص بالطب النفسي لأكتشف أن كل الخوارق التي نتحدث عنها وتحدث لنا بظروف خاصة وغامضة، ليست سوى حالات نفسية وترسبات من الوهم لخيال تسيطر مساحته الواسعة حين نتركها على عقولنا، عندما نقتنع بها ونصدق ما يُحكى لنا، عند ذلك تتمكن من السيطرة تفكيرنا ونتحكم ببعض رواسب الماضي، خاصة عندما علمت أن قصتي لم تتوقف مع خوارق الطبيعة فقط، بل التخاطر كان أهمها بالنسبة لي، والعلم الذي كنتُ أجهله زادني معرفة، وأصبحت المفارقة واضحة، بين المعرفة الآن، وجهلي التام عندما ساقتني الأفكار ممزوجة بوهم الخيال الطفولي لتلك الفترة، لأعيش تفاصيل حياة غريبة بخيالي الواسع، أخذ يستقطب من الأرواح القريبة والكثيرة، لتكون مادته الأساسية. الكل تكلم وأبدا رأيه من الطبيب .... إلى أمي .... وأبي، ولكني وحدي من عاش تلك التجربة، ووحدي من خضتُ أحداثها وتحملتُ بشاعتها، وانهاري المفزع بها، ووحدي من يستطيع أن يقيم صحة ما حدث لي، إن كان وهم أو خيال هو، أم له ثوابت زرعت بداخلي منذ سنواتي الأولى، أهمها أني لستُ ابنة هذه العائلة، والقصة التي روتها أمي قد تكون هي الحقيقة كاملة، أمي توفيت، عند ولادتي وأخذتني الأم الأخرى لحضنها ترعرعتُ وكبرتُ على يديها، ولن تتركني أبدًا، ولن تتخلى عني، كنت ابنتها الوحيدة، وسأكون للأبد والسر لن تبوح به لأحد غيري مهما كان، المعجزة أنني ولدتُ لأجلها، بمكان وزمان ليس لي، كأني عشتُ مع تلك العائلة في حيات سابقة، وأني سأواصل مشاركة هذه العائلة في حيات لاحقة، وأنا أكثر ما يخيفني تلك الكارما والتقمص وما شابه، قليلة تكون الأشياء المشتركة بيننا، كيف نتفاهم فالماضي يتربع بذاكرة طفولتي التي عشتها، والآن الثقافة والعادات المتوارثة بين الأجيال تتصارع مع بعضها وتقف وتُفرق بيننا، كيف أستطيع أن أمزج بين ذاكرة طفلة وبين حاضر شابة تستقبل الحياة بحلم جديد، من الثقافة والعلم ؟كيف بوسعي التنازل عن كياني لأتحول وبشكل مفاجئ لأدخل حياة عائلة وأكون فرد من بين أفراد هذه العائلة التي لا أعرف عددها، خُلقتْ فجأة لأكون أحد أفرادها. ليس لي خيار إذًا، سأتابع حياتي مع هذه العائلة التي أحببتها وأحبتني، وانسجمت معها منذ ولادتي ولا يلزمني ولا أستطيع الانفصال عنها، مهما تناقل لي

من أخبار عن بنوتهم لي، سأعيش وأنا راضية، بكل ما يأتي به القدر مع الزمن القادم بكل أحداثه، وحده من يستطيع تقديم الثوابت للجمع بين العقل الواعي والباطن، لأكون أنا مريم مختار اليماني، مكتوب اسمي على هويتي وبطاقة شخصيتي معرفٌ بها أبي وأمي، وابنة من أكون ولا أحتاج شيئًا آخر، ولا أحتاج لأكثر من ذلك، لأنها الأهم لتواجدي بهذه بالحياة.

عرفت فيما بعد، وهذا ما يحدث معي دائمًا، أن معرفتي تأتي لا حقًا، أن كل ما مر بي، كان حلم .. مجرد حلم هكذا سأعتبره، حُلم نسجه خيالي المشحون بالقصص الحقيقية والوهمية، كان درسًا مهمًا بالنسبة لي على مرحياتي كلها، تعلمتُ من الدرس أن ما أريد هو ما سيكون، وتعلمتُ من هذا الدرس الكثير، إلى أن وصلتُ لهذا العمر من خلاله فهمتُ، أن العهود الحقيقة الوحيدة والأزلية الباقية التي تغير ولا تتغير، كماء نهر لا يتوقف جريانه عن التجديد، يتجدد باستمرار ويغير مياهه مع سرعته وبطئه، لا يتوقف، يلفظ الرواسب والملحقات على ضفتيه، يحمل معه عذوبة ماءه النقي بالتجديد الدائم. تمامًا كما تقدم لنا الحضارة المزيد من التكنولوجيا الحديثة والرقي الثقافي، مع أن شيء من ذلك لا يُبطل مفعول الموروثات والمخلفات القديمة التي تناقلها الأجيال جيلٌ بعد جيل لأن الماضي يعيش بجسد الحاضر ويندمج معه بالروح التي تمتد كجسر يربط بين عصور الحضارات المتوارثة بجينات مختلفة ، لذلك لا يمكن أن تساعد العقول المتحجرة بالجهل لسحبنا نحو خرافات وأوهام كما حدث معي بطفولتي وامتدَ بي لمراحل طويلة من العمر، فالتواصل والاندماج بين جسور التطور للحضارات هو الأكثر تواجدا عند البعض لمناخ متحجر بمعتقدات وهمية بحته ، كما يحدث مع البعض وهم يعيشون قصص وخيالات وهمية عاشت بمخيلة صاحبها وأصابته بالجنون.

تمت بعونه تعالى

الكاتبة

سهير عبد الله رخامية

2016 / 6/ 1

obeikandl.com